رواية
السكمانيّ

الدكتور جمال البدري

2025

السكمانيّ
(رواية)

بسم الله الرحمن الرحيم

لوحة الغلاف للفنّان التشكيليّ
المصريّ الدكتور طاهر عبد العظيم

السكمانيّ

(روايـة)

تأليف

الدكتـور جمـال البـدري

دار النفائس

السكماني (رواية)

تأليف: الدكتور جمال البدري

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى: 1446هـ - 2025م

ISBN: 978-9953-18-4-647

(إنّ الأدب العظيم ؛ يحفّ باللامعقول)

{ من رواية المعطف للكاتب الرّوسيّ في القرن التاسع عشر: غوغول }.

****

قُبيل انتهاء موسم الحجّ في مكة؛ من عامّ 2015 توجّه الفتى إلى حيث يقيم في فنـدق (إيلاف كندة) بجواروقف الملك عبد العزيز؛ القريب والمواجه للمسجد الحـرام... هذا الفندق ذي النجوم الخمسة؛ يتمييزبغرفه الأنيقة ذات الأثاث النظيف؛ وبمحتوياته الخشبيّة الداكنة؛ وأرضيته المفروشة بالسجاد مع خدمات عديدة للنزيـل طوال إقامتـه فيه؛ في الديارالمكيّة أثناء موسم الحجّ الأكبر؛ وفي مواسم العمرة اللاحقة للحجّ.
بعد ظهرذلك اليوم والفتى دخـل إلى الفندق فأخبره موظف الاستعلامات أنّ (حاجًّا) من جزرسليمان الواقعة في المحيط الهاديء؛ يرغب بمقابلته!؟
استغرب الفتى! فهو لا يعرف أحدًا من تلك البلاد البعيدة النائية... وسـأل الموظف:
ـــ ما اسمه؛ ولماذا يريدني أنا بالذات؟
ـــ هو لا يعرفك شخصيًّا لكنه سأل عن وجـود حاجّ من العراق هنا؛ فأبلغناه بذلك... وهومن أعيان تلك البلاد؛ واسمه بموجب جوازسفـره: لقمان غريـب باشا الصوفيّ.
قلّب الفتى الأمرفي خاطره... مستغربًا ومترددًا؛ لكنه تـرك الأمـرلمقابلته؛ لمعرفة ما يريده ذلك الحاجّ الغريب؛ هكذا فجأة من حاجّ عراقيّ على وجه الخصوص!
مضت ساعة ثمّ حضرالسّيد لقمان بلباسه المتمييزوهويضع ريشـة صفراء من الذهـب فوق عمامته البيضاء... إنه رجل ذوسحنة سمراء؛ وقد بلغ نحوالأربعين من العمر.
تحدّث إلى موظف الاستعلامات الذي أشارنحوي... التفت إليّ مبتسمًا وتقدّم بخطوات متلهفّة بشوق؛ كأنّه وجد ضالته التي جاء من أجلها إلى الديارالمقدّسة!
تصافح الفتى ولقمان؛ وبكلمات إنكليزيّة تساعد على الفهم دون الحاجة لمترجم؛ قـال السائل للفتى: أنا لقمان غريب الصوفيّ؛ أحد الأعيان من جزرسليمان؛ وأصلي مـن العراق... انتبه الفتى لما سمع. فما علاقة العراق بجزرسليمان في المحيط الهاديء؟
جلس الاثنان في قاعة الضيوف المجاورة... ثمّ رشفـا فنجاني القهـوة الحجازيّة التي يمتـازبإعدادها ذلك الفندق الكريم... وطفق لقمان الحديث:
ـــ اسمعني ياسيدي هذه أوّل مرّة أخرج بها من بلادي البعيدة؛ صحيح كمسلم جئت لأداء الحجّ والعمرة... لكنني في الأصل جئت للقاء أيّ حاجّ عراقيّ للحديث إليه بشأن قضيّة تشغلني منذ سنين خلت؛ وهي أنّ أصلي؛ كما قد علمته قبل وفـاة والـدي من العراق... وأريد معرفة بعض التفاصيل التي شغلتني؛ فمعرفة الجذورترسيخ لشجرة

الفرد والعائلة... وتشعّب لقمان بالتفاصيل وأضاف:
ـــ لقد أعلمني والدي أنّه جاء مهاجرًا إلى جزرسليمان من مدينة في العراق اسمها: سامراء؛ واستقـرّبعدما صارحاكمًا على جزيرة تيكوبيـا؛ وهي جزيرة صغيرة من عشرات جزرسليمان؛ وتقع في الجنوب الأقصى من مجموعة جـزرسانتـا كـروز؛ وجزيرتنا الصغيرة؛ فيها جبل اسمه: (رينـــي)؛ حيث تمّ دفن والدي فيه؛ حسب وصيته؛ وهوالذي سمّاه: جبل فريدة؛ نسبة لاسم أمّه الراحلة...
لقد وصل أبي إلى جـزرسليمان في سنة 1960؛ وكان عمره يومذاك ثلاثيـن عامًّا... وفي سنة 2005 توفّي أبي: غريب الصوفيّ؛ وقد ترك وراءه إرثًا طيبًا عند النّاس... لقد حافظ والدي على إسلامه في وسط مسيحيّ جاء به الاستعمارالأوربيّ إلى الجزر.
كان الفتى يستمع للتفاصيل؛ وهولا يعلم ما وراءها؛ بل وماذا يريد لقمـــان أنْ يصل إليه من هذه التفاصيل التي أثارت استغراب الفتى؛ أيّما إثارة... وسـأل الفتى لقمانًا:
ـــ وما عدد سكان جزيرتكم اليوم؛ ياأخي الصوفيّ؟
ـــ يبلغ عددهم ألفًا وأربعمائة إنسان من الشعب الميلانيزيّ؛ ونحن اليوم أحراربعد خروج السيطرة البريطانيّة ورحيلها عن جزرسليمان؛ منذ سنة 1978.
أما عائلتي الآن فلديّ شقيق أكبرمني متزوّج؛ ويعمل منقّـبًا للذّهـب؛ فجزيرتنا فيها كنـوزمن الذهب الخام؛ أنا أيضًا متزوّج ولدي طفلان: ولد وبنت. أما والدتي ماريـا تاروفهي مسلمة من شعب الميلانيز؛ فلا تزال تعيش معي؛ وتتذكّرأيامها مع أبي...
ـــ وما هوالمطلوب مني ياأخي الحاجّ؟
ـــ أنْ تساعدني على معرفة أصلي العراقيّ؛ كي أحفظه لأبنائي وعائلتي من بعدي.
وفجأة قال الفتى:
ـــ أتعلم ياسيد الصوفيّ؛ أنا أيضًا من مدينة سامراء في العراق كأبيك!؟
قفزلقمان واحتضن الفتى بشغف مفاجيء... غيرمصدّق؛ والدموع تسيل على خديه.
ـــ أريدك أنْ تحدّثني عن سامراء تلك؛ هي الحلم الذي يراودني في اليقظة والمنام. وهل فيها اليوم منْ هم من عائلة أبي؛ أتمنّى ذلك؟
أتمّ الفتى احتساء فنجان القهوة... وهويسترجع بعضًا من مشاهد تلـك المدينة العريقة. وجال الفتى الحديث عن تاريخ المدينة وجغرافيتها وعن ماضيها وحاضرها ومعالمها كأنّه رسم للقمان خريطة مجسمّة يراها؛ كما رأى النبيّ سليمان عرش بلقيس عيانًا... كانت معالم المسرّة على وجه لقمان لا تخفى؛ فهي قد جمعت الفرح المشوب بالتلهّف إلى مزيد... ووعده الفتى أنْ يقدّم له أصل الرّواية التي بموجبها قد هاجروالده غريب

الصوفيّ من العراق إلى جزرسليمان البعيدة في تلك الفترة المشوبة بالصراع الدمويّ من تاريخ العراق الحديث... ثمّ صدح صوت المؤذّن الرخيم معلنًا دخول وقت صلاة العصر... وتواعــدا (الفتى ولقمان) على اللقاء ثانيّة في قاعة ضيوف الفنـدق تلك. ورغم سرعة التعارف والتآلف بين الاثنين؛ لم يجد الفتى ما يريب في ذلك الغريب...

****

بخشوع روحي أدّى الفتى صلاة العصر... لكن خاطره المستيقظ ظلّ مشغولًا بأمـــر هذا الحاجّ لقمان غريب باشا الصوفيّ... وأخذ يتساءل بصمت:

ـــ ما وراء هذا الرجل ياترى؟ هل يريد فعلًا معرفة أصـول عائلته؛ أم وراء ذلك قصدًا أبعد؟ إنّ التحسّب واليقظة مطلوبة مع أيّ غريب ولوكان ابن غريب الصوفيّ. استغفرلنفسه من ظـنّ السوء. وظلّ في الحرم حتى أداء صلاة المغرب؛ ثمّ عاد إلى الفندق... ودلج إلى قاعة الضيوف ليجد صاحبه الميلانيزيّ بانتظاره. تبادلا ابتسامة الودّ؛ وجلس الفتى قبالة لقمان عن قُرب:

ـــ أهلًا بك ياسيدي العراقيّ؛ لقد جئـت مبكّرًا لاسمع منك لما تبقّى من حديث مفيد.

ـــ وأهلًا بك ياابن العمّ!

تفاجأ لقمان بهذا الترحيب الحميميّ من الفتى؛ كأنّه أعــاده إلى أصل سيرته الأولى...

ـــ سعيد بقولك لي ياابن العمّ!

ـــ أليس أبـوك في الأصل من مدينتي سامراء في العراق؟ فأنت إذن لـي ابن عمّ...

ـــ وهل لديك شيئًا مفيدًا لتوثيق هذه الصلة ياابن العمّ؟

وضحك الاثنان على لغة الخطاب المتبادلة...

ـــ الآن ليس لديّ ما تريده؛ إنما لنتفق على تبادل المفيد لاحقًا... وأرى أنْ تزوّدني بعنوان بريدك الإلكترونيّ؛ وأزوّدك بعنوان بريدي الإلكترونيّ؛ وحالما سأعـود إلى بلادي؛ وأنت تعود إلى بلادك؛ سنتواصل مباشرة وبالتفاصيل... لتتكامل الرّوايــة.

ـــ موافق على هذا الرأي الكريم ياابن العمّ.

ـــ سأحتاج للبحث والسؤال عن عائلة أبيك؛ وما سأحصل عليه من معلومات عنهم سأوافيك بها... خاصّة قبل مغادرة والدك للعراق؛ وأنت بالمقابل تبعـث لي التفاصيل التي تعرفها؛ منذ أنْ وطئ والدك جزرسليمان؛ ثمّ استقرّفي جزيرة ومدينة تيكوبيا...

ـــ هذا جميل؛ وأنا سعيد بمساعدك لي؛ ولعلّنا نلتقي مرّة أخرى يا ابن العمّ؟

ـــ إنّ شاء الله ياحاجّ لقمان غريب باشا الصوفيّ.

وتبادل الاثنان عنوان البريد الإلكترونيّ؛ لكلّ واحد منهما. ثمّ خلــع الصوفيّ ريشــة عمامته الذهبيّة وأهداها للفتى؛ دلالة على: الثقة والكرم والعرفان المسبق والتقديرله.

ـــ غدًا إنْ شاء الله سأودي طواف الوداع في الكعبة؛ قبل العودة إلى الأهل والوطن.
ـــ على بركة الله وأنا سأنتظرلثلاثة أيام ثمّ أغادرإلى ماليزيا ومنها إلى جزرسليمان.
سلّم الفتى على الحاجّ لقمان فيما احتضن الصوفيّ الفتى بودّ وحميميّة حارّة تجاوزت جغرافيا خطوط الطول ودوائرالعرض. فهي بسعة المحيط الهاديء؛ العظيم الحجم...

****

عاد الفتى الحاجّ إلى مدينة سامراء. وأُستقبل من قبل أهله ومعارفه وأصدقائه بحفاوة كما هوشأن استقبال غالبية الحجيج في تلك المدينة؛ التي تضمّ ضريح أئمة من البيت النبويّ الكرام... ومن تقاليد أهل المدينة أنّ يبتدأ الحاجّ ؛ حين مقدمه إليها من الديار المقدّسة بزيارة ضريح الإمام العاشرمن ذريّة البيت النبويّ: عليّ الهاديّ؛ ذي القبة الذهبيّة؛ للتبرّك بأداء الصلاة بركعتين؛ قبل أنْ يأتي ويدخل إلى منزله؛ بعد أيام معدودات من أداء فريضة الحجّ... كأنّ الحجّ؛ وهوالركن الخامس؛ في حسبانهم لا يكتمل إلا بتلك الزيارة الأثيرة لصاحب القبة الذهبيّة قبل أنْ يفاجئنا الإرهاب بعدوانه؟
في مدينة سامراء سبع عشائرمحليّة تنتمي إلى البيت النبويّ؛ وقد جاء أجدادهم إليها حينما اختارها الخليفة العباسيّ المعتصم عاصمة لدولته... فأمربأنْ يُجلب إليها بعضًا من رجال البيت النبويّ من المقيمين في المدينة المنورة؛ وقد قيل خشية منه أنْ يؤدي وجودهم بعيدًا عن عاصمة الخلافة إلى صراعات سيّاسيّة وعسكريّة وقلاقل غوغاء.
ولا تزال تلك العشائرالعربيّة السبع؛ تقطن في تلك المدينة التي تطلّ على نهردجلة...
وتذكربعض كتب التاريخ القديم؛ أنّ أصل نشأة سامراء إنما يعود إلى سام ابن نوح؛ وهورأي غيرموثّق بأدلّة... أنما الذي تتفق عليه المصادر؛ أنّ الخليفة المعتصم حينما اختارها عاصمة لدولته؛ وجد فيها ديرًا للنصارى؛ أشاروا عليه أنّهم اتخذوا ذلك الموضع للعبادة لقداسته القديمة... ولا تزال العديد من الآثارالخربة متناثرة حول تلك المدينة وضواحيها... أما أكبرالرموزالآثاريّة التي لا تزال شامخة حيّة فهي: المنارة الملويّة؛ التي تسموعلوًا ملتوية؛ عكس عقارب السّاعة؛ وتطلّ على أكبرالمساجد في العالم الإسلاميّ يومذاك؛ والذي يتسّع لمائة ألف مصلٍ؛ وقد تمّ بناؤه في القرن الثالث الهجريّ؛ من العصرالعباسيّ.
وشأن كلّ مدينة عراقيّة ذات حيويّة... فقد نالت سامراء نصيبها من أواصروعناصر الصراع السيّاسيّ الحديث؛ البديل للصراع والاحتراب العشائريّ التقليديّ.
لقد انقسّم شبابها بين عدّة أحزاب سيّاسيّة منذ عقد الخمسينات من القرن العشرين... ففريق منهم اتخذ له الولاء القوميّ وفريق اتخذ الانتماء الناصريّ وفريق آمن باليسار وفريق هامشيّ رابع مال إلى جماعة الإخوان... أما هذا الفريق الهامشيّ من الجماعة

فهم من شباب لم يكونوا ينتمون إلى العشائرالسبع بل هم ممنْ يسمّون باللفق. أي من الذين جاءوا إلى المدينة من خارجها؛ وانضمّوا إلى إحدى العشائرلتأويهم؛ خاصّة بعد الحرب العالميّة الأولى؛ فيما سمّي بالسُويع. وهي حالة من الجوع الشديد التي ضربت مناطق واسعة من البلاد؛ فساعوا عن مدنهم هربًا وخرجوا بحثًا عن طعام؛ لكن تلك المدينة الزراعيّة لم تعانِ كغيرها من سغب الجوع والقحط... فكانت مؤولًا للأغراب؛ الذين سمّوا باللفق. أي: الملتحقون لفقًا لا أصالة بالعشائر... لهذا كان التأثيرالإخوانيّ؛ كفكروتنظيم؛ ضعيفًا بين سكان المدينة؛ وظلّوا طويلًا في الظلّ... رغم أنّ سكان المدينة كانوا من المحافظين المتدينين؛ لكنهم قد رفضوا الفكرالشاذ.
وتذكّرالفتى ما كان والده يرويه له عن تاريخ تلك المدينة المغروسة في قلب العراق. ففي تاريخها الطويل... ثمة حادثتان كبيرتان معروفتان إحداهما مرتبطة بعهد الخليفة العباسيّ المعتصم في القرن العاشرالميلاديّ... والثانية مرتبطة بهجمات من أغراب على المدينة في القرنين: التاسع عشروالعشرين... وما تبعها من أحداث ساخنة.
ففي عهد الخليفة المعتصم كانت الاستجابة لصرخة المرأة العربيّة التي أسرها الرّوم؛ ونادات: (وآ معتصماه) فأرسل الخليفة إلى بلاد الرّوم جيشًا؛ وأنقذها من الأسر. ووثقّ الشّاعرأبي تمام الطائيّ تلك الواقعة في قصيدة له مشهورة.
في نهايّة القرن التاسع عشرهجم ذئاب التلال (القلندريّة) على ضريح الإمام العاشر الهاديّ في سامراء... فانتخت العشائرالسبع دفاعًا عن ضريح جدّهم المبارك الثاوي في أرض مدينتهم منذ أكثرألف سنة وعامّ... فرفعوا السلاح أمام ذلك التحديّ الكبير. ونزولًا لقرارشيوخ العشائرالسبعة شكّلوا قوّة من شباب العشائر؛ للدفاع عن الضريح. وافقت العشائرالسبع على هذا الرأي؛ ومعهم جمهوركبيرمن سكان القرى المجاورة. ولتأمين ضريح الإمام؛ اجتمع الشيوخ السبعة؛ وقرروا أنْ تندب كلّ عشيرة مائة من رجالها لحراسة الضريح؛ فتكون كلّ عشيرة لها ليلة من ليالي الأسبوع؛ هنا انبرى أحد الشيوخ مقترحًا(*). أنْ تكون حشوة بارود السلاح؛ وكانت يومذاك من قطعة حديد وخرقة من قماش خام أبيض شاميّ؛ كقماش الكفن للميت؛ وأنْ تُستبدل بقطعة من معدن الفضّة؛ بدل الحديد وبخرقة من الحريرالأخضر؛ بدل قماش الخام الشاميّ الأبيض؛ إكرامًا للبيت النبويّ الشريف. ووافق الشيوخ (السبعة) بسخاء على ذلك المقترح... ثمّ بعد ذلك سعى(الشيوعيون) في ستينات القرن العشرين إلى استهداف ضريح الإمام عليّ الهاديّ؛ لكن الأهالي حالوا دون تنفيذ ذلك الاستهداف الفتنويّ؛ فارتقوا البنايات العالية القريبة من الضريح؛ لمراقبة أيّة تحركات مشبوهة للنيل منه! لكن يد الغدرتسعى دائمًا للنيل من استقرارتلك المدينة المنسجمة مع ذاتها ومحيطها...

فتمت مواجهة ذلك المدّ الشيوعيّ الأحمرثمّ المدّ الهـدام الأخضر؛ فهما وجهان لعملة واحدة من السوء الأســود؛ وإنْ بدت للنّاس يومذاك؛ متناقضة في المظهروالجوهر. لتجد المدينة بعد حين من الدهر؛ موجات أخرى من غـدرمدعوم من خارجها الآثم...

(*) هوالشيخ محمـد الحسن مصطفى عثمان البدري؛ الجدّ الرابع لكاتب هذه الرّواية.

****

وتذكّـرالفتى أنّ لقب: الصوفيّ الذي قد سمعه من الحاجّ لقمان غريب الصوفيّ؛ لـه دلالة بالطرق الصوفيّة... وهو يعلم أنّ الطرق الصوفيّة في مدينة سامراء تنتمي إلى الطريقة القادريـّة: (نسبة للشيخ عبد القـادرالجيلانـــيّ؛ المدفون ببغداد؛ منذ القرن السادس الهجريّ). وإلى الطريقة الرفاعيّة (نسبة للشيخ أحمـد الرفاعيّ؛ المدفون بمحافظة ميسان العراقيّة منذ القرن السادس الهجريّ أيضًا). وإلى طريقة البوخُمـرة (نسبة للشيخ عليّ أبي خُمرة؛ المدفون عند جبل حمرين في العراق منذ القرن التاسع عشر). وهذه الطريقة الأخيرة هي مزيــج من الطريقتين: القادريّــة والرفاعيّـة؛ مع بعض الخصوصيّات. وكلّ طريقة لها أتباعها وتكاياها ودراويشها ومريديها؛ سـواء في الداخل أوفي الخارج؛ من العرب والأكراد وغيرهم من عموم المسلمين.
كان الفتى أيام صباه يحضربعضًا من (موالـد) تلك الطرق الصوفيّة؛ بصحبة أخيه الأكبر... وتبدأ بالصلاة على النبيّ الخاتم مع ضرب الدفوف؛ تعقبها أناشيد وأذكارًا؛ وتختتم برقصات الدراويش المميزة في الدورة والصولة بأسلوب من اللفّ العبقريّ... ثمّ الانتقال إلى حالة السّموالرّوحيّ بإدخال الحـراب والسيوف في الأجسـاد؛ من دون دم نازف ولا صراخ صاخب ولا ضرربــادٍ لعيان الضيوف... إلا أنها تترك كوابيسًا قبل وأثناء النوم للصبيان والفتيان الحضور؛ بعـد الانصراف... رغم ضيافة المائـدة الدسمة التي تختتم بها تلك (الرقصات) والجذبات المرعبة النحر؛ للصغاروللكبار.
إذن: مفتاح معرفة أخبارذلك الغريب الصوفيّ هي عند أحد أفراد هذه الطرق الثلاث. من هنا كانت البدايّة... وفاءً للكلمة مع الحاجّ لقمان؛ قبل العودة من مكة إلى الوطن.
مضت أيام الأسبوع استراح فيها الفتى ثمّ قـررأنْ يتفقّد منْ من الرجال الذين تجاوزوا سنّ السبعين؛ وكانوا رفاقًا أقرانًا لغريب في المدينة يومذاك؟ وقال الفتى في خاطره:
ـــ الآن أكيد وصل لقمان إلى وطنه في جزيرة تيكوبيا من جزرسليمان؛ وهوينتظر مني الرسالة الأولى للاطمئنان. إنّ الوفاء بالوعد الصادق؛ شيمة العربيّ والمسلم...
ـــ (عزيزي الحاجّ لقمان غريب الصوفيّ: الحمـد لله على السلامة... أنا الآن في مدينتي سامراء. وأكيد حضرتك في جزرسليمان... إنْ شاء الله سأنجزّلك مـا وعدتك

به... كن مطمئنًا سأباشرمعرفة أيّة معلومات عن والدك وتزويدك بها. ولكنني أريد الاطمئنان على وصولك إلى عاصمة جزيرتكم؛ أرجوإعلامي ذلك ؛ للتواصل؟).
ولم تمضِ إلا ساعات قليلة حتى بعث الحاجّ لقمان بالجواب؛ وأنه الآن فعلًا مع أهله في مدينة تيكوبيا... بعد رحلة طويلة من مكة إلى ماليزيا؛ ومنها إلى جزرسليمان...
وأنه زارقبرأبيه في أعلى جبل (ريني) والذي أطلق عليه والده اسم: جبل فريدة!؟

****

بعد أيام علم الفتى أنّ ثمة مولدًا ستقيمه (التكيّة) الرفاعيّة في سامراء... وأنّ عددًا من الضيوف الدراويش من خارج المدينة؛ سيحضرون هذا المولد الكبيربمناسبة (تخريج) مجموعة جديدة من المُريدين المؤهلين للقيام بواجبات الطريقة الرفاعيّة...
وسيصحب هذا المولد الكبير؛ حلقات الذكرمع طقوس ضرب: الحراب والسيوف.
وسيحضرهذا المولد الشيخ عباس نيشان؛ المعروف عنه كراماته وبركاته وعلاقاته؛ في الأوساط الصوفيّة... فهورجل كريم وصاحب مقام جليل وسمعة عُليا بين النّاس.
تهيّأ الفتى ليكون حاضرًا مع جمهورالحضور... ثمّ سينتقي الشخص المناسب لما كان يرومه من ملكوت السؤال والجواب؛ الدال على غريب الصوفيّ؛ من بين الرجال...
وبعد الانتهاء من صلاة عشاء ذلك المساء... اكتظّ مكان المولد بجمّ غفيرمن الشباب والرجال؛ وأغلبهم يضع على رأسه طاقية بيضاء؛ ومطلق لشعرلحيته الأسود أو الأشيب؛ وهم يرتدون الملابس البيضاء؛ كأنّهم في ليلة القدرمن شهررمضان.
كانت الجلسة الصوفيّة للدراويش في تلك الليلة؛ ذات الدوائرالمحبوكة على صنفين:
الأوّل: جلس الشيوخ في نصف دائرة في صدرالمكان؛ ومن ورائهم رايات خضراء؛ ويحيط بهم ضاربوالدفوف؛ وفوق رؤسهم على الجدار؛ عُلّقت السيوف في أغمادها.
الثاني: المريدون من الجدد ومن حولهم عشرات المريدين والأنصار؛ وهم يشاركون المولد بتقديم خدماتهم للشيوخ؛ وسط هدوء أقرب للصمت؛ ويعتمدون الإشارة بدل الكلام الصاخب... فيما كان الجمهوريشكّلون الحلقة الخارجيّة التي تنتظرطقوس ذلك الذكرالصوفيّ المهيب الجلال... في وجل على بعضهم؛ وانتظاربعضهم لما سيكون.
كان المكان مضاءً بزينة كهربائيّة ملوّنة أضفت عليه هيولي: الشّمس والقمروالنجوم.
وقف (عريف المولد) وبيده المكرفون؛ وطفق صوته المجلجل يصدح في تلك الليلة مرّحبًا بالضيوف وبالحضور؛ ثمّ طلب من الجميع قراءة سورة (الفاتحة) للبركة...
وانطلق الذكربالصلاة والسّلام على سيد الكائنات النبيّ الخاتم وآله وأصحابه الكرام.
وباشرت الأكفّ ضرب الدفوف (للاحماء) فيما كانت أعناق المريدين تهتزّكرقاص السّاعة؛ ذات اليمين وذات الشمال... في دائرة ذات حدود للحركة؛ لا يتجاوزونها.

بعد دقائق أشار الشيخ عباس؛ وهو رجل في السابعة والسبعين من العمر؛ على بعض من المريدين تسخين جذوة المولد والذكر؛ فثمة نظام مركزيّ وهندّسيّ ليس من حقّ أيّ من المريدين مخالفته أو الخروج عنه؛ إلا بإشارة أمر من ذلك الشيخ الكبير... فيما كانت الدفوف تصدح كلما ازدادت سخونة الأجواء... فلا بدّ للشيخ عباس من بيان أنّ مريديه كفء أمام ضيوف من أصحاب الطرق الأخرى؛ فالتقييم مرتبط بالانضباط.

****

دار حديث بين لقمان الابن ووالدته السّيدة ماريا بشأن الحاجّ العراقيّ الذي تعرّف عليه في فندق (إيلاف كندة) في مكة... والاتفاق المبدئيّ الذي جرى بينهما لمعرفة ما خفي عن تاريخ الأب غريب الصوفيّ؛ قبل وصوله إلى جزيرة تيكوبيا؛ حيث استقرّ في عاصمتها... وعن أشياء أخرى:

ـــ الأمّ ماريا: أنا متلهفّة أكثر منك ياولدي على معرفة تلك الحلقة المفقودة من أيام وتاريخ أبيك... وأريد أنّ أسمع عنه ما كان حريصًا على عدم الخوض فيه يومذاك...

ـــ الابن لقمان: لا تتصوري ياوالدتي؛ كم كنت سعيدًا بالعثور على ذلك الحاجّ من العراق؛ ومن مدينة والدي سامراء بالذات...

لقد اتفقت معه على التواصل عبر البريد الإلكترونيّ؛ وقد بعث لي أوّل أمس برسالة لمعرفة وصولي إلى تيكوبيا؛ وقد أجبته للاطمئنان... إنه رجل محترم وأراه صادقًا؛ والفضول أيضًا دفعه ليعرف تفاصيل حياة والدي هنا بعد وصوله إلى جزرسليمان... وسأذكر له ذلك؛ لكنني ياوالدتي سأحتاج لتفاصيل أخرى؛ لا أعرفها عنه إلا منكِ؟

تبتسم الأمّ... وتؤكّد له أنها ستخبره بتلك التفاصيل؛ للردّ على الفتى العراقيّ؛ كلما بعث لهم بأخبار الأب المتوفّى؛ التي لا يعرفون تفاصيلها... قبل وبعد وفاته:

ـــ لا تستغرب يالقمان أنّ اكتمال رواية والدك لن يتمّ إلا بلقاء ذلك الفتى العراقيّ...

ـــ وأين سنلتقي به ياوالدتي؟

ـــ مثلما سافرت لوحدك إلى مكة... المرّة القادمة سأكون معك إلى مكة... وهنالك سنلتقي به ولو كان مجيئه إليها على حسابنا الخاصّ؛ إلا إذا حال دون ذلك مانع قاهر.

ـــ إلى هذه الدرجة تحبّين والدي؛ رحمه الله؛ وتريدين معرفة كلّ شيء عنه؟

ـــ أبوك كان شخصيّة لا مثيل لها في كلّ جزرسليمان... إنه ليمتلك طموحًا ليس له مثيل. لقد جاء من بلاده البعيدة وشارك في مسابقة اختيار حاكم لجزريتنا الصغيرة وفاز؛ ولم يكتفِ بذلك الفوز بل أعاد الوحدة والتعاون بين النّاس بالمحبّة والعدل؛ لم يفرّق بين مسيحي ومسلم؛ على قلة عدد المسلمين في تلك الأيام.

ـــ وكم كان عدد أفراد جزريتنا هذه يومذاك؟

ـــ ألــف من الرجـال والنساء. منهم مئتــان وتسعون مسلمًا؛ والباقـون من إخوتنا المسيحيين... لكن كان المسيحييون يحبّونه كما المسلمين... لقد حقـق للجزيرة عدّة مكاسب في الزراعة والتعليم والأمـن والصحة والخدمات؛ وأصبحت ميزانية المدينة عشرة أضعاف عما كانت عليه قبل أنّ يفـوزبالحاكميّة. وسأحدّثـك الكثيريالقمان عنه في قابل الأيام. أبوك غريب الصوفيّ حقًا رجل عظيم؛ صنع الممكن من المستحيل.

****

طرق الفتى عصرذلك اليوم باب منزل الشيخ عباس نيشان... ثمّ فُتــح الباب من قبل أحد أبناء الشيخ... وبعد السّلام سلّم للابن حقيبة (بلاستك) فيها جملة من هدايا الحجّ مرسلة للشيخ الوالد... بعد قليل خرج الشيخ ليشكرالفتى على هديته من الديارالمقدّسة وفيها بركة مكة والمدينة؛ فرحّب بالفتى وطلب منه الدخول لاحتساء القهـوة العربيّة. وجدها الفتى المناسبة التي كان ينتظرها منذ عودته من الديارالمقدّسة... فهوقدعلم أنّ الشيخ عباس كانت لديه معرفة قديمة بغريب الصوفيّ منذ أيام الشباب؛ بحكم الجوار وبحكم الاهتمام والزمالة بالدراسة الثانويّة والجامعيّة.

ـــ أهلًا وسهلًا بالحاجّ؛ وحــجّ مبــرورإنْ شاء الله؟

ـــ أشكرك يا شيخ عباس... كم كنت سعيـدًا برؤيتك؛ قبل يوميـن حضرت مولـد الذكرللطريقة الرفاعيّة الكريمة الذي أقيم في دارتكم المباركة هذه...

ـــ هل وجدت ما يثيرانتباهك؟

ـــ كلّ شيء بالتصوّف يثيرانتباهي. فهوعالم الرّوح الجميل في زمن المادة الثقيل.

ـــ تعبيرك يدلّ على أنّـك تقدّرالتصوّف؟

ـــ لقد قرأت عن الطرق الصوفيّة وعن أولياء التصوّف الكبار... إنــه عالم يستحق كلّ التقديروالاحترام... إنما لديّ سؤال أرجو من حضرتك البيان والجواب؟

ـــ تفضّـل وأسأل ياجاري؟

ـــ قبل عودتي إلى العراق من مكة بيومين؛ التقيت بحاجّ من بلاد جزرسليمان في المحيط الهاديء؛ وهي أبعد عنا من ماليزيا... فاجأني ذلك الحاجّ أنّ والده من أصـل عراقيّ... هاجرإلى تلك البلاد النائيّة منذ عامّ 1960؛ وهناك أصبح حاكمًا على تلك الجزيرة؛ ثمّ تزوّج من أهلها... وتمنّى ذلك الحاجّ أنْ يعرف عن أبيه المتوفّى؛ ما لم يكُ يعلمه عنه؛ حينما كان في العراق قبل الهجرة! إنّ الأب من سامراء ياشيخ!

ـــ ما اسم ذلك الأب السامرائيّ العراقيّ؟

ـــ غريـب باشا الصوفيّ!!

انتبه الشيخ عباس نيشان حالما سمع بهذا الاسم الغائرفي ذاكرة الليالي والأيام؛ فقـال:

ـــ رحمه الله... الآن قد علمت أين هاجرقبل أكثرمن أربعين سنة. نعم أعرفه جيدًا.
ـــ ليتك ياشيخنا الكريم أنْ تحدّثني عنه بالتفاصيل التي تعرفها؟ فولده هوالحاجّ لقمان؛ يريد معرفة جذورشجرة العائلة؟ وهذا من حقّه الطبيعيّ.
غاص الشيخ في خاطره وذاكرته؛ ليسترجع بعضًا من تلك الليالي والأيام من ذلك العامّ الساخن؛ وما هومفيد الذكرأثناء الطغيان الشيوعيّ الأحمرعلى البلاد والعباد... وبعد برهة قلقة مرّت على الفتى بوجل شغوف... وفضول نفس جيّاشة تنتظرمعرفة المجهول بالمعروف... فهي الأمانة التي تعهّد بها لذلك الحاجّ؛ الغريب ابن الغريب.
ـــ اسمعني ياصاحبي وجاري... كلّ ما أعرفه عن غريب الصوفيّ؛ سأسرده بين يديك؛ كأنّك تراه وتشهده عيانًا؛ رغم الزمان غيرالقصيرللأحداث. فإنْ نسيت شيئًا فسامحني. فللعمربعد السبعين ضريبته؛ وضريبته النسيان؛ إلا ما شاء الله الرّحمن.
أنا وغريب الصوفيّ زملاء مدرسة... وبعد الثانويّة هواختاردراسة اللغة الإنكليزيّة في كليّة الآداب بجامعة بغداد... فيما كان اختياري دراسة اللغة العربيّة بالكليّة نفسها. لقد تخرجنا عامّ 1952 من الجامعة. هوعمل في مكتب للترجمة ببغداد لبضع سنين؛ ثمّ عاد إلى سامراء... وأنا عدت إلى سامراء مباشرة لأعمل في تدريس اللغة العربيّة.
كان الفتى في اندماج وحضور؛ كأنّه جهاز تسجيل... لا تشرد عنه كلمة مما يسمعه.
ـــ كان العراق بعد تلك الأيام خاضعًا للحكم الشيوعيّ؛ والذي قد أدخل إلى البلاد وعلى العباد وسائل وأساليب التعذيب والاضطهاد المجنون؛ لكلّ ما هووطنيّ غيور.
كانت صيحة (ما في مؤامرة تصيروالحبال موجودة) هي السمة السائدة للشيوعيين؛ كناية للإعدامات على مشانق الحبال؛ المقامة عند أعمدة الكهرباء في كلّ مدينة... لقد قتلوا الكثيرمن الوطنيين واغتالوا المعارضين عبثًا... رغم ذلك كان غريب باشا لا يهدأ في مقاومة طغيانهم الأحمر... سواء في الجامعة وبعدها؛ فكان يطبع ويوزّع المنشورات ويدعوللتحذيرمنهم. فلما عرفوا به قرروا اغتياله؛ بحثوا عنه في بغداد فلم يعثروا عليه... وعلموا أنه عاد إلى مدينة سامراء؛ حيث كان والده السّيد باشا الصوفيّ؛ وهوصاحب طريقة صوفيّة قادريّة؛ ووالدته الحاجّة فريدة رحمهما الله؛ علم غريب بمحاولة اغتياله... فجهّزنفسه لملاقاة الغدر؛ بجلد وشجاعة مؤمن؛ فكان يحمل معه مسدسه... وفي إحدى الليالي من عامّ 1959 هجموا على منزل الصوفيّ؛ لم يجدوا سوى والده ووالدته؛ فقتلوهما غدرًا وظلمًا؛ ومن دون رحمة ولا خشية...
ـــ وأين كان غريب ياشيخنا؟
ـــ كان ساعتها خارج المنزل... وبعدما علم بالخبر؛ كان كوقع الصاعقة عليه؛ فانتفض كالأسد ثمّ عرف بجماعة الكفّ الأحمرالتي كانت وراء عمليّة اغتيال والديه.

كانوا ثلاثة من الشيوعيين؛ مخبأهم يقع في حي القاطول غرب المدينة القديمة؛ حيث كانوا يختبؤون كالخفافيش؛ فهجم عليهم الأهالي وهويتقدّمهم؛ فأردوا الثلاثة قتلى... وطفق راقصًا جذلًا؛ بعدما أخذ الثأرليلتها من المعتدين الظالمين الغادرين الملحدين. لكنه أدرك أنّ العُصبة لن يتركوه. فعاد إلى منزل أبيه الراحل؛ فجمع ما فيه من مال لأبيه وذهب لأمّه فريدة؛ وأوصى بعض الجيران على المنزل (المهجور) من أهله... ثمّ جاءني ليلًا؛ طالبًا أنْ أرشده إلى طريق للخروج عن المدينة؛ غيرطريقها المعتاد الذي يقف عنده أزلام السلطة الحمراء بسلاحهم الغادر... فنصحته بالخروج سباحة عبرنهردجلة إلى الضفة الأخرى؛ ثمّ المغادرة منها إلى بغداد؛ حيث الشيخ سيروان أزمريّ المقيم في الحضرة القادريّة الجيلانيّة. وذلك الشيخ صديق حميم لي ولوالده.

ـــ إنها قصّة مثيرة ياشيخنا الجليل... ولقد أتعبتك معي؛ وهيجّت شجونك القديمة!

وسالت الدموع من عيني الشيخ عباس نيشان... وأدرك الفتى أنّه فتح جروحًا منسيّة. لكن الشيخ طلب منه البقاء لاكمال القصّة... كي تنقل بأمانة إلى عائلته تلك في البلاد البعيدة... وأشارالشيخ على أحد أبنائه بتجديد ضيافة القهوة العربيّة له وللضيف:

ـــ ثمّ علمت أنّ غريب الصوفيّ؛ قد وصل إلى ضفة دجلة الأخرى؛ متخطيًّا نقاط الشرطة... كان ذلك في أواخرصيف عامّ 1959... فنزل ضيفًا على حارس مدرسة (القلعة) قرب محطة القطارباتجاه الطريق إلى بغداد... استضافه الحارس حمدون الطويل في تلك الليلة وقدّم له عشاءً؛ واختارله أحد صفوف تلك المدرسة للمبيت... وقالوا: إنّ في صباح اليوم التالي غادرالمدرسة؛ بعدما وجد سيارة حمل (بيك آب) تحمل البطيخ الذي تشتهربه مزارع مدينة سامراء؛ لتنقله إلى بغداد...هكذا سمعت.

ـــ إنها رحلة خطيرة ومحفوفة بالتحديّ ياشيخنا الجليل... يالـه من شاب جسورفي ذلك الزمن الأحمر الخطير! وكان عمره نحوًا من ثلاثين سنة.

ثمّ نظرالشيخ إلى أحد السّيوف المعلّقة على جدارغرفة الضيافة؛ وأشارإليه بتمييز:

ـــ انظرياحاجّ إلى هذا السّيف... إنه هديّة للتكيّة من والد غريب؛ السّيد باشا الصوفيّ؛ رغم أنه صاحب طريقة قادريّة؛ وتكيتنا على الطريقة الرفاعيّة؛ لكنه لم يكُ يفرّق بين هذا وذاك... لعن الله أصحاب الكفّ الأحمرالذين قتلوه غدرًا من دون ذنب؛ سوى أنه من المؤمنين الصالحين الرافضين للظلم... وولده غريب كان مثله.

ـــ ومنزلهم لمنْ آل بعد مقتل والديه ثمّ مغادرة غريب الصوفيّ العراق؟

ـــ لقد اغتصبته السلطة الظالمة ثمّ باعته بمزاد علني؛ ووزّعت المال على عوائل الشيوعيين الثلاثة من عصابة الكفّ الأحمر؛ الذين قتلهم (الأهالي) في اليوم نفسه.

ـــ لم يدربخلدي مثل هذه التفاصيل ياشيخنا الجليل. والله لقد شدّتني القصّة بشوق...

ـــ وقتها كانت قصّة مدويّة بين سكان المدينة...عن ذلك السكمانيّ؛ المولع بالصيّد.

ـــ سمعت أنه كان صيّادًا ماهرًا فأطلقوا عليه السكمانيّ؟ هل من أخبارأخرى عنه؟
ـــ بالنسبة لي ليس لديّ ما أدخّره من مواقف وأحداث. فبعد وصوله خائفًا يترّقب إلى بغداد ستجد تفاصيل ذلك عنه؛ عند الشيخ سيروان أزمـــريّ؛ الذي لا يزال حيًّا ويعيش في خلوة زهد له في غرفة خاصّة بـه في صحن الحضرة القادريّة الجيلانيّة؛ ويمكنك الذهاب إليه؛ وأنْ تسلّم لي عليه؛ فبيننا معرفة قديمة؛ وسيقصّ لك المزيـد.

****

خرج الفتى من دارة الشيخ عبـاس نيشان؛ يلفّـه هيولـي من دلتـا الخواطروالظنون... بعدما أسمعه ذلك الشيخ الجليل التفاصيل التي كان يبحث عنها؛ ولم يكُ على يقين من معرفتها... بعد تلك الأيام الطوال. وقررمواصلة المشوارحتى تكتمـل لديه الصورة. لقد سمع ما لم يكُ يتوّقعه عن ذلك الرجل؛ الذي اتخذ طريقه في البحـرعجبًا؛ حتى وصل إلى أقصى الأرض وحيدًا... ليكون حاكمًا على جزيـرة؛ ولـوكانت صغيرة؛ ويُنشأ عائلة لتعويض ما خسره في بلاده من أب وأمّ... إنه شبيه بعبد الرّحمن الداخل؛ الذي نفذ من مطاردة خصومه له حتى وصل إلى بلاد الأندلـس وأنشأ خلافـة جديدة... إنّ قرارالرجال أمام تحدّ مكنون عظيم لصناعة الأقدار؛ لا يعلمه إلا الشديد المحال. توجّـه الفتى نحومسجد مجاورلضريح الإمام الحسـن العسكريّ؛ لأداء صلاة العشاء؛ وقد اتخذ قراره بالبحث عن حارس مدرسة القلعة؛ حمدون الطويل... ليعرفه منه أيّة تفاصيل مكنونـــة عن تلك الليلة الساخنة التي قضاها عنده غريب الصوفيّ. إنّ موقع تلك المدرسة لا يبعد في الجـوار؛ سوى خمسة كيلومترات عن مركزمدينة سامراء.
ـــ لم أكن أتوّقع أنْ يأخذ تعهدي للحاجّ لقمان البحث عن قصّة والده المتوفّى غريب الصوفيّ؛ كلّ هذا الجهد؛ إنما الحديث النبويّ يقول: { إنّ الله يُحـبّ إذا عمل أحدكم عمـلًا أنْ يتقنـه }. وقد تعهّدت له؛ أنْ أرفـده بتفاصيل قصّة أبيه في مسقط رأسه... وسأتقن عملي له بإخلاص من دون تردد ولا نقصان.
إلا أنّ الفتى قررفي تلك الليلة أنْ يبعث (خلاصة) ما سمعه من الشيخ عباس نيشان؛ بشأن غريب الصوفيّ إلى ولده الحاجّ لقمان؛ عبرالبريد الإلكترونيّ... لمنحة جرعة من الأمل المنتظروالثقة وحسن الظنّ المتبادل بينهما.
لم يكُ الفتى يعلم علم اليقين؛ بتلك التفاصيل؛ كما لم يكُ يعلم علم اليقين؛ مـؤدّى هذه القصّة؛ التي تبدو طافحة بجدليّة الصراع الفرديّ؛ ضمن الصراع الوطنيّ للعراق... وهل الصراع الوطنيّ لجماعة؛ بالنتيجة؛ إلا مجموع الصراعات الفرديّـة المتمييزة؟ وعلى هامش هذه القصّة؛ قررالفتى أنْ يدرس بعمـق الطرق الصوفيّة؛ ودورها في الصراع الوطنيّ؛ باعتبارها جماعات ضغط ورأي عامّ؛ وذات تنظيم له شيخ قائد...

وتذكّـرأنّ في مكتبته أكثرمن كتاب بهذا الموضوع. وبعد عودته إلى المنزل وارساله لخلاصة ما سمعه من الشيخ عباس نيشان؛ سيتفـرّغ للقراءة عن الطرق الصوفيّة في العراق الحديث. كما تمّ دراسة الأحزاب والجمعيات التي أسهمت في صناعة التاريخ السيّاسيّ؛ مثلما لعبت تلك الطُـرق والتكايا؛ دورًا مشرّفًا في جهـاد الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسيّ... وحافظت على شخصيّة البـلاد العربيّة الإسلاميّة من المسـخ...

****

في صباح اليوم التالي... فتح الفتى جهازالكمبيوترالشخصيّ ووجد رسالة جوابيّة من لدن لقمان غريب الصوفيّ؛ تحمل مشاعرًا جياشّة من المسرّة والمفاجأة الموجبة لما حققه الفتى وبسرعة؛ بشأن أخبارومعلومات عن أيام أبيه الأولى في مدينته سامـراء. وتحقق للفتى مقدارالانتظاروالاهتمام بتلك القصّة... وأنّ عائلـــة غريب الصوفيّ في جزيرة تيكوبيـا البعيدة؛ تنتظرالمزيد... وهذا ما قد شجّع الفتى على بذل ذلك المزيد.
إنّ الاهتمام المتبادل بين طرفين؛ تجمعهما قضيّة واحدة؛ يخلق فرصًا غيـرمنظورة للقضيّة نفسها في الظروف الاعتياديّة... إنّ الإنسان الفعّال مجبول على تثويرالذات؛ لتثويرذوات الآخرين... كي لا يصاب الطرف المقابل له؛ بثرميدورالتراخي والفتور وتباطيء الدوافع لمنع تحقيق النتائج المرجوة؛ على أحسن حالة وصورة متخيلة.
وبذلك وجد الفتى نفسه مشغولًا بمهمة غيراعتياديّة؛ على الرغم من أنّ صاحبها يبعد عنه آلاف الكليومترات... لكن المشاعرالصادقة المتبادلة؛ تتجاوزالمسافات البعيدة؛ ولوكانت عبرالمحيطات والبحار. فهل مشاعرالإنسان مطوية في داخله؛ بسعة تفوق سعة البحاروالمحيطات؛ لهذا تمتـــدّ بإشعاع ذاتيّ غيـرمنظورللآخرين ؛ لتصل إلى أقصى الأمكنة من الأرض؟ ومن هنا وجد الإنسان؛ منذ الخلق الأوّل؛ القدرة على تصوّرما وراء السّماوات؛ حيث الجنّة الغاية المبتغاة للوصول إليها للعيش السرمديّ.
فكلما كنت إنسانًا مؤمنًا بقضيّة... ستجد ذاتك الحيّة؛ ذات سعة تفـوق سعة الزملكان.
وتذكّرالفتى اللقاء الأوّل بالحاجّ لقمان في مكة... ومكة عند الفتى هي التعبيـرالصادق العمق والأفق معًا لمفهوم الزملكان؛ قبل أنْ يقول به عالم الفيزياء العبقريّ أنشتايـن.
ورغم هذا الاهتمام الذي طفق بالتزايد... إلا أنّ للفتى بعضًا من المشاغل (العائليّة) التي تستوجب منه التفرّغ لها؛ وسط بحران الحياة اليوميّة.
صحيح هوليس بمتزوّج؛ رغم بلوغـه سـنّ الثالثة والثلاثين من العمـر؛ إنما هومع أب وأمّ وشقيقة وشقيق؛ أصغرمنه ببضع سنين. والعزوبيّة لا تعني الإضـــراب عن التفاعل والفرديّة الأنانيّة... كما يحلولبعضهم ترديدها جزافًا؛ لأنّ الحياة فنّ الالتزام.
هذا يعني أنّ ثمة نظامًا إطاريًا للحفاظ على الرؤية الإنسانيّة الواقعيّة؛ حسب أعراف

وتقاليد وظروف كلّ مجتمع؛ خاصّة في المجتمعات الشرقيّة المحافظة.
لقد سبق له الحديث مع والـده وأخبره بقصّة لقمان غريب الصوفيّ؛ ووجـد تشجيعًا منه باعتبارتلك قضيّة ذات مهمازفي الانتماء للوطن؛ رغم كلّ الحسابات السطحيّة... التي يرى بعضهم أنها مضيعة للوقت؛ من أجل سفاسـف لا تغني ولا تُسمن ولا تُفيد.
وما درى أولئك السطحيون؛ أنّ البحث عن المغامرة لهوجزء من فنّ الالتزام بالحياة.

****

وصل الفتى إلى مدرسة (القلعـة) المطلّة على نهردجلة من الضفة الأخرى؛ المقابلة للمدينة... هويعلم أنّ الحارس حمدون الطويل؛ قد ترك وظيفة الحراسة في المدرسـة منذ زمن طويل... إنما جاء ليبحث عنه؛ لعلّ أحدهم يدلّه إلى منزله.
وجد شابًا يقف عند باب المدرسـة... فسلّم عليه؛ وسأله عن منزل حمـدون الطويـل؟
ـــ لا أعرف هذا الشخص ياأخي. أنا هنا حارس منذ سنتين؛ ولـم أسمع بهذا الاسم!
ـــ أين أجد (مختارالمنطقة) هنا؟
ـــ إنه يسكن قرب محطة القطار؛ ويسمّونه أهالي المنطقة: جاسم محطة.
شكرالفتى ذلك الحارس الشاب... وتوجّه تلقاء محطة القطار؛ حيث توجـد العديد من المساكن ذات الطابق الواحد... أنشأها الإنكليزمنذ فترة ليست بالقصيرة؛ ثمّ آلـت إلى السكان المحليين. إنها مساكن بسيطة البناء؛ لكنها جميلة وتؤدي وظيفتها لساكينها...
أخيرًا وجد مختارالمنطقة السّيد جاسم محطة؛ الذي دلّـه على مسكن حمدون الطويل.
وأخبره أنّ صاحبه سيجده في المسجد؛ يؤدي صلاة العصر؛ هورجل أسمرونحيف؛ يتكأ على عصا؛ معروف من أهالي المنطقة؛ وهومن رواد ذلك المسجد نهارًا وليلًا.
توجّه الفتى إلى مسجد المحطة... سأل عن حمدون الطويل؛ فوجده وهويؤدي صلاة النفل بعد الفرض. وبعد الانتهاء من أداء الصلاة؛ أقبل عليه وسلّم يدًا بيد؛ وتعارفا.
اصطحب حمدون الطويل الفتى إلى مسكنه القريب من المسجد... وبعدما شربـا شاي العصريّة؛ بادرالفتى وسأله:
ـــ ياعمّ حمدون؛ لقد علمت من الشيخ عبـاس نيشان في مدينة سامـراء؛ أنك كنت حارس مدرسة القلعة أيام زمان... والشيخ يبلّغك السّلام.
ابتسم حمدون الطويل وردّ على الفتى:
ـــ لقد تركت وظيفة الحراسة قبل ربع قرن من الآن ياولدي.
ـــ أعلم ذلك ياعمّ؛ أطال الله عمـرك وحفظ صحتك... بل ما أريده أنْ تحدّثني عن شخص عبرنهردجلة ليلًا سباحة؛ وكان ضيفك في مدرسة القلعة ليلتها!
بالحذرالذي تعلّمه من مدرسة الزمن؛ لتحقيق اليقين من دون توريط دفين:

ـــ ما اسمه ياولدي؟
ـــ اسمه غريب باشا الصوفيّ؟
صفن حمدون الطويل متذكّـرًا ومسترجعًا خاطره المثقل بالأيام والليالي؛ ثمّ قال له:
ـــ تذكّرته... إنــه صيّاد السمك البارع. هذا كان منذ زمــن طويل. فما شأنه الآن؟
وقصّ الفتى عليه الغرض المطلوب؛ لمعرفة ما هومجهـول من تلك الليلة الساخنة...
ـــ إذن: عليك أنْ تبقى معي حتى الليل... حتى أحدّثك بتلك التفاصيل؟
ـــ موافق ياعمّ... وأشكرك على حُسن الضيافة مقدّمًا.
ـــ انصت إليّ ياابن أخي؛ بعد صلاة عشاء تلك الليلة؛ طرق باب المدرسةّ عليّ شاب مبتّـل الملابس؛ وقال لي: أنا غريب ابن باشـــا الصوفيّ؛ قد بعثني إليك الشيـخ عباس نيشان! أنا أعرف ذلك الشيخ الرفاعيّ؛ لأنني من مريــده... فرّحبت بالشاب وأدخلته إلى المدرسة... كانت تلك الليلة من أيام شهرأب؛ والعطلة الصيفيّة للمدارس لا تزال مستمرّة؛ وقلما يزورني أحد من معارفي هنا إلا لمامًا.
دخل الشاب غريب؛ وأجلسته على كرسيّ خشبيّ... ثمّ عرضت عليه طعام العشاء؛ وكان جائعًا... لم أسأله؛ وتركته حتى ارتاح قليلًا؛ وأخذ يحدّثني عن الظلم الأحمـر للشيوعيين... وكيف أنهم قتلوا والده ووالدته؛ فهـرب قبل أنْ يقتلوه. لكنه لم يخبـرنِ عن قتل قتلة والديه في تلك الليلة الساخنة. ربّما أراد عدم خلق خـوف لديّ؛ فيخسر مبيت تلك الليلة؛ وسألني المساعـدة الممكنة؟
ولأنه جاءني من قبل الشيخ عباس نيشان؛ تعاملت معه بكرم وأريحيّة. ثمّ سألني أنه يريد الذهاب إلى بغداد... فأبلغته أنّ السفرإلى بغداد الآن لا يخدمــك؛ فالطريق إليها مرصودة؛ ويمكنك البقاء معي لأيام حتى أومّن لك الوسيلة المناسبة.
ـــ لكن ما علمته أنه لم يقضِ معك إلا ليلة واحدة فقط؟
ـــ هذا كان للتضليل على مكان غريب الصوفيّ خشية عليه من عيـون الشيوعيين.
لقد قضى معي أسبوعًا؛ كان يذهب إلى ضفة النهرليصطاد السمـك بمهـارة كي ينسى القلق الذي كان عليه... ولا أخفيـك أنني وجدت به شابًا دمثًا؛ وكنت محتاجًا لأنيس؛ فالمدارس أيام العطل الصيفيّة تكون موحشة في النهاركما في الليل.
إنه كان يصطاد السمك بمهارة. وفي المساء كنّا نقوم سويّة بشواء السمك على طريقة المسكوف... ثمّ نتسامرالحديث اللطيف عن التصوّف حتى يدخل علينا وقت السحر...
إنه كان شابًا من مريدي الطريقة القادريّة الجيلانيّة... ويمتلك بصيرة عميقة رغم أنه شاب في مقتبل العمر... وأحيانًا كان يعوم في النهرتقلّبًا على طريقة رقصة التمساح.

بعد أسبوع أبلغني أنه قـرر الذهاب إلى بغـداد؛ وأنه سيسلك طريقًا ترابيّة بموازاة مع بحيرة الثرثار؛ حتى يصل إلى منفذ طريق الفلوجة باتجاه العاصمة... ووافقتــه على ذلك فهي طريق آمنة؛ وقلما تتواجد فيها دوريات الشرطة؛ لهذا يستخدمها المهربون عند المساء أوعند غبش الفجر... بصراحة كنت أتمنّى أنْ يطيل المكـوث معي بعدما وجدت به الرفيق الحميم؛ رغم قصـر الأيام السبعة من الرفقة والحديث العذب معه...

ـــ وهل قال لك شيئًا خاصًا تتذكّره ياعمّ؟

ـــ قال سأذهب إلى أقصى الأرض كي أبـدأ من جديد. ولم أفهم وقتها مقصده ذاك.

****

يومها سرح مخيال غريب نحوطفولته وهوبين أبيه وأمّه؛ اللذان عرجـا إلى السّماء... وتذكّرنزعته (المتمردة) منذ صباه؛ وكيف كان يبحث عبثًا عن أسرارألعابه الملوّنة كالقطاروالسيارة التي بين يديه فيسعى لتقليبهما ثمّ كسربعضها؛ ليرى ما في داخلها من (محرّك الحياة) وهي تسيرفوق بــلاط المنزل بالبطارية أوبالزنبلك المضغوط. وكم حاول بطفولته الباغية أنْ يكوّن ألعابًا جديدة من بقايا تلك الألعاب بعد تكسيرها... ثمّ يجد والده قريبًا إليه؛ ليدلّه على كيفيّة التعامل الصحيح مع تلك الألعاب دون عبث! فمرّة يرضخ لما يقوله له الأب؛ ومرّة يغافله ليعود إلى سيرته الأولى عابثًا باحـثًا عن المجهول ليحضره بين يديه؛ كما يُحضرالساحر(الجنيّ) من وراء خـداع المستور. إنه يسعى لتغييرالمتداول بشيء مغاير... ولـوكان على حساب ألعابه (العزيزة عليه). فهل تكسيرألعاب الطفولة نزعة في ذلك الطفل الذي سيغييرذلك الواقع القائم إلى شيء جديد؛ بعدما يبلغ رشده في هذا العالم المصطرع على النفوذ؟ أم هي نزعة عبث كما تعبث صغارالحيوانات وتتهارش لتتعلم بغريزة موروثة؛ بعدما تكبركيفيّة الاصطياد؟ لاشكّ أنّ ذلك العبث الطفوليّ الغائـرفي مخيال الذاكرة؛ شيء مزيج من عبث الرؤيـا ومن تطّلع مكنون في شخصيّة الطفل... قد يقدح في المستقبل نحوطريق منيرة؛ بعـد أنْ تصقله الأيام الطويلة بالتقليب؛ كتقليب عذق البلـح لينضج تحت حرارة تموزوآب. وتذكّركيف أنّ والده كان يشجعّه على السفرإلى خارج البلاد؛ بعدما شبّ؛ ويتعلّم من تلك الأسفارالمزيد...وكانت أوّل سفرياته مع طلبـة الثانويّة إلى إحدى البلاد المجاورة. ثمّ أعقبها بسفرة إلى إحدى البلاد الأوربيّة بالطائرة؛ التي كادت أنْ تسقـط بركابها في أوّل رحلة جويّة له؛ ومنذ تلك الحادثة التي قد أنجّـاه الله منها؛ كانت كراهيته لركوب الطائرات فمال إلى السفربالبرّأوبالبحر؛ إنْ نال فرصة السفربحـــرًا؛ رغم أنّ ساحل بلاده على الخليج لا يتوافربه ميناء للسفربل فقط لتصديرالنفط والتجارة.

ووجد السفـربالقطارمتعة بشغـف؛ لا تضاهيها متعة ركوب: الخيل والبغال والحمير والطائرات... لذا كان كلما رأى سكة حديد محطة القطاريحسّ أنها ترحّب به بشوق. إنه القطارالذي عبث به كلعبة صغيرة أيام طفولته فعرف: داخلـه ومداخله ومخارجه؛ فأصبح صديقه الأمين... فهل سيركب قطارالمحطة للسفربه من محطـة قطارسامراء إلى مدينة بغداد بأمان؟ ودارت في خاطـره حسابات البدائل والاحتمالات والمخاطر: ـــ لا ينفع لي السفرإلى بغــداد بالقطار؛ لأنّ ركابه يخضعون للتفتيش؛ وربّما علم زبانية السلطة؛ فيضعون لي كمينًا في منتصف الطريق... وتذكرالحكاية الشعبيّة عن صياد السمك حسين النمنم؛ وكيف خطفته السعــلاة مباغتة؛ وهوعائــد إلى منزله!؟

****

كان الشيوعيون يتابعون الهــارب غريب باشـــا الصوفيّ؛ وأعلنوا عن مكافـأة ماليّة مغرية يومذاك؛ لمنْ يُدلي بمعلومات تساعدهم القبض عليه... رغم ذلك تمكّن غريب من الدخول إلى بغداد... ووقف عند مكتبة فاشترى نسخة من جريدة الجمهوريّة؛ ثـمّ واصـل سيره إلى الحضرة القادريّة الجيلانيّة...

كان وصوله إليها عند الظهــر... وكان صحن الحضرة قليل الزوار... فدلـف بهدوء إلى الطابق الأوّل حيث الغرف السكنيّة لأصحاب الطرق الصوفيّة وصالحي الزّهــاد. وتحت تلك الغرف؛ يوجد مطبخ الحضرة الجيلانيّة الكبير؛ الذي يشهد حضورًا من الفقراء والمساكين في كلّ صباح باكــروحين المغرب... إذْ يتمّ منه توزيع أطباقٍ من الشوربة الدسمة بلحم الضأن من قبل المتبرعين نذورًا ومن الأغنياء... ومع كلّ طبق رغيف خبزأسمر... وفي الجهة الأخرى من الحضرة؛ توجد مطاعم صغيرة لشواء (الكباب) لمنْ يرغب من الزواروالغرباء... وإلى جانبها مقــاهٍ لبيع الشاي الأسـود؛ ومحلات لبيع شراب الزبيب البارد؛ وأخـرى للحلوى والمكسرات والبخوروالشموع. إنه عالم يضجّ بالحياة الشرقيّة؛ وتجتمع فيه أجناس من عـرب وكـرد وأعاجم شتى... والحضرة القادريّة مأوىً قديم للزهاد... ينخــوون فيها للبركة والبروك الطويل؛ فهم مريدون للبازالأشهب؛ رغم وفاته قبل قرون. والبازالأشهب لقب للشيخ عبد القــادر الجيلانيّ؛ الذي يحظى بالمحبّة والبركة سواء في داخل وفي خارج العراق.

وربما قليلون لا يعرفون أنّ لهذا الشيخ الذي يسمّى أيضًا بقطب بغداد دوره الكبيرفي تحريربيت المقدس من الصليبيين؛ في معركة حطين؛ بقيادة صلاح الدّين الأيوبيّ. فبعد احتلال بيت المقدس من قبل الصليبيين؛ انتخى الجيلانيّ وسافــرإلى مكة لأداء شعائرالحجّ... لكنه كان يُخفي شيئًا آخر؛ كان يروم تحقيقه... وهوالجهــاد في سبيل الله. إذْ اجتمـع هنالك بالعديد من علماء وفقهاء المسلمين يومذاك... وعـرض عليهم

تمويل معركة تحريـربيت المقدس... فاستجابوا لدعوته؛ وكانت الأمـوال تصل إلى بغداد؛ ثمّ تنقل سرًّا إلى بلاد الشام؛ لتجهيزالمعركة ضد الصليبيين... ورغم وفـــاة الشيخ الجيلانيّ قبل وقوع المعركة التي سعى إليها؛ إلا أنّ ولده صالح واصل المهمة والتقى بالقائد صلاح الدّين الأيوبيّ قبل المعركة... فكان تحريربيت المقدس نصـــرًا عسكريًا عظيمًا من لدن الله؛ بفضل تلك الجهود القادريّة... وبذلك تحـوّل الجيلانـيّ إلى رمزللجهاد ضد المحتلين. ولأنّ (ذريّة) الصليبيين قد علموا بالدورالكبيرللشيخ عبد القادر؛ كان القائد البريطانيّ (مود) حين احتلال العراق؛ عند الحرب العالميّة الأولى؛ اتخذ من الحضرة القادريّة رمزذلك الجهاد؛ إسطبلًا لخيول جنـود الاحتلال إهانة وانتقامًا من روح البازالأشهب؛ لكن النصـرالسابق؛ لا يُلغى بالكذب والدّجل. فرحل الاحتلال؛ وظلّ مقام قطب بغداد راسخًا في أرض العراق لا يزول ولا يأفل.
لقد وصل إلى الحضرة القادريّة... وأوّل شيء فعله بعد استدلاله على غرفة الشيخ أنْ توضأ وصلّى جمعًا وقصرًا؛ الظهروالعصر... فهويحسب نفسه أنــه في سفرقصير. ثمّ صعد نحوغرفة الشيخ سيروان أزمـــريّ... فطرق بابها؛ وفتحـــه الشيخ المهيب الطلعة؛ وله ضفائرمدلاة... فنظرفي وجه ذلك الشاب بفراســة المؤمـن؛ ثمّ قال له:
ـــ تفضّل ياولدي؛ أتقصدني؟
انحنى غريب وقبّـل كفّ الشيخ بأدب جمّ؛ وقال له:
ـــ أبلغك سلام الشيخ عباس نيشان من مدينة سامراء.
ابتسم له الشيخ؛ وأذن له بالدخول... فوجد غرفة ذات أثاث بسيط وقليل؛ إنها غرفة زاهد صادق؛ لا يـروم لنفسه من الدنيا شيئًا من المتاع والمظاهرذات النعيم والحبور.
ـــ عرّفني بنفسك يا...
ـــ اسمي غريب ابن باشـــا الصوفيّ من مريـدي الطريقة القادريّة. لقد هربت من ظلم وطغيان الشيوعيين؛ بعدما قتلـوا والديّ؛ وهم يطلبوني كذلك... وجئتك لابتغي مساعدتك للخلاص منهم؟ ولقد أخبرني الشيخ نيشان؛ أنـك لقادرعلى ذلك؛ ياشيخنا.
ـــ القادرهوالله ياولدي... لا تقلق إنك معي آمن؛ وستكون ضيفي حتى يأذن أمرالله.
أوّل شيء منذ اليوم؛ أنْ لا تحلق لحيتك... دعها تنموتطول كشعرالدراويش أمثالنا.
وابتسم الشيخ الجليل... وسأله:
ـــ هل أكلت شيئًا ياجائـع؟
ـــ حتى الآن لا؛ ياسيدي.
ـــ انهض وافتح ذلك القدر... ففيه بقايا شوربة؛ وإلى جواره رغيف خبز؛ فكلّ... أما أنا فأحتاج لقيولة ساعة لاستريح؛ فتعينني على أداء صلاة جـوف الليل الطويل.
تناول الصوفيّ ذلك الحساء ورغيف الخبزالأسمربلذة الجائع... فالجوع أمهرالطهاة.

ثمّ فتح جريدة الجمهوريّة التي اشتراها منذ أوّل وصوله إلى بغداد... وطفق يقرأها... حتى وصل إلى قراءة خبر؛ يبدوطريفًا؛ لكنه كان صحيحًا؛ ومضمون ذلك الخبـر: (سيقيم سكان جزيرة تيكوبيا؛ إحدى جزرسليمان في المحيط الهاديء مسابقة كبرى للرجال... وتتضمن اختيارحاكم لتلك الجزيرة الصغيرة؛ لمنْ يقدّم للجمهورأغـرب رقصة تنال رضا اللجنة). تبسّم غريب الصوفيّ ضاحكًا... وقال في خاطره القلـق:
ـــ إنها مسابقة ليست فيها شروطًا تعجيزيّة؛ أهمّها تقديم رقصة طقوسيّة متميزة... لمنْ يُقيم في الجزيرة. نعم إنها نائية؛ لكن البُعـد الحقيقيّ؛ الغربـة وأنت في وطنك؛ ولوقدّمت للنّاس كلّ رقصات العالم الجادة والهزليّة؛ ستبقى غريبًا فيه حتى النهايّة...

****

مضت تلك الأيام والليالي بمرارتها على مدن العراق الحديث... فبعد اسقـاط النظام الملكيّ في تموز1958... انفرد عبد الكريم قاسم بقيادة شؤون الدولـة العراقيّة ومعه الحزب الشيوعيّ المحليّ... وتنامى ذلك الصراع السيّاسيّ الداخليّ بين (أحـزاب) اليمين واليساروالحركات القوميّة العربيّة والكرديّة؛ حتى تحوّل إلى ظاهرة دمويّـة... ظلّ غريب الصوفيّ كامـنًا؛ برعاية الشيخ سيروان أزمريّ في الحضرة الجيلانيّة. لقد طال شعررأسه ولحيته؛ كأنّه خارج للتـو من كهف... حتى ضاعت معالـم وجهه فلا يُعرف لمنْ يراه للوهلة الأولى إلا بالتفرّس مليًّا فيه...
وطوال تلك الأيام كان يتجوّل في صحن الحضرة القادريّة؛ فيلتقي بالعديد من فقـراء ومساكين وزهاد المقام الجيلانيّ؛ فما أكثرهم... وهم يحسبون أنه أحدهم.
وكان يحضرجلسات الذكروالمولد التي تقـام فوق ساحة مرتفعة؛ مخصصة لمثل تلك المناسبات الصوفيّة... وهويرى ويتعلّم رقصات وجذبات الدراويش. لقد أصبـح حقًّا درويشًا بدل أنْ يكون مدرسًا للغة الإنكليزيّة؛ كما تشيرإلى ذلك شهادته الجامعيّة. فكم أضاع العراق كفاءآت أهله بسبب الصراع السيّاسيّ السلبيّ الآثم... فمنهم منْ هـرب ومنهم من سُجن ومنهم منْ فارق الحياة غدرًا ومنهم منْ (اعتزل) شهادته فتحوّل إلى بقال يبيع خشاشًا؛ ليعيش فقط؛ في حارة منزوية؛ بعيـدًا عن الأضواء والحضارة... خاصّة بعد ثورة الشواف في مدينة الموصل (نينوى) في آذار1959 ضد الشيوعيين.
وظلّ غريب الصوفيّ على ذلك الحال المجهول لفترة طويلة؛ حتى تمّ نسيان أمـره... لكن شيئًا ظلّ يدورفي مخيلته... السفرإلى خارج البلاد؛ ليبدأ حياة جديدة وتعويضيّة.
ـــ أترى أنّ الشيخ أزمريّ يخطط لشيء لم يخبـرنِ به حتى الآن؟ لقد وعدنـي من قبل أنه سيساعدني. هورجل صدق جاد لا يخلف وعده. وقد عرفته عن كثب وقرب.

وفي جولاته اليوميّة تعرّف غريب على زاهد؛ يبدو نظيف الملابس؛ كان يجلس في ظلّ ركن مبنى الحضرة... أثار هذا الزاهد فضول وقلق غريب!
ـــ غالبًا الزهاد هنا فقراء؛ وقلما يهتمون بنظافة ملابسهم... كما أنّ أثر الزهد في الطعام يظهر على وجوههم المصفرّة... وهذا الزاهد ليس كذلك. فوجهه عليه آثار النعيم؛ وملابسه ليست مرقعّة كزهاد المقام!؟ سبحان الله؛ إنّ الظنّ أثم.
عاد إلى غرفة الشيخ أزمريّ؛ وأخبره عن ذلك الزاهد المترّف المثير للظنّ والشكّ.
ـــ إنْ شاء الله غدًا سنخرج من هنا ياغريب. لقد بلغ الأمر منتهاه؛ فجهّز نفسك جيدًا لسفر طويل ياولدي. سنذهب إلى شمال العراق؛ فالجبال صديقة الغرباء المضطهدين.
وفهم غريب كما فهم الشيخ ؛ أنّ ذلك الزاهد الوهمي هو من عيون السلطة ليُراقِب...

****

لقد أدّى المقيمون صلاة الفجر... في الحضرة الجيلانيّة؛ ثمّ انزوى بعضهم لقراءة القرآن؛ وهم يستندون على أساطين المرمر في القاعة الكبيرة للزوار.
ووقف غريب في طابور توزيع شوربة ذلك الإفطار الأخير... ليضلل على عين ذلك الزاهد الذي جاء للمراقبة خلسة عن بُعد... ثمّ اختفى (العين) من المشهد كالشبح.
لقد خرج من الحضرة القادريّة؛ دون معرفة السبب... إلا أنّ غريبًا أوجس منه خيفة التبليغ عنه. فهكذا كانت شكوكه الذاتيّة؛ رغم أنها مجرد ظنون من خائف في نفسه.
فذلك (الزاهد) لا علاقة له بغريب ولا بأحزاب السلطة ؛ لا من بعيد ولا من قريب.
في السّاعة السابعة صباحًا انطلق الشيخ سيروان أزمريّ بصحبة غريب الصوفيّ؛ ليستقلا سيارة أجرة نحو شمال العراق:
ـــ إلى أين سنذهب ياشيخنا الكريم؟
ـــ تعلّم؛ أنّ مريدي الصوفيّة الجيلانيّة لا يسألون شيوخهم بل يطيعونهم بالصمت... وحين السؤال معك في نقاط التفتيش للشرطة على الطريق؛ تظاهر أنك أخرس.
أحسّ غريب أنه أخذ الدرس الأوّل من شيخه بكلمات معدودات... ورسخت في نفسه. ورغم صمته طوال الطريق... لكن خاطره لم يهدأ؛ وأنّى له الهدوء وهو الذي فقد أمّه وأباه ومنزله بل ومستقبله كلّه بعد التخرّج من الجامعة... وأضحى مطلوبًا للسلطات بسبب نهايّة عصابة الكفّ الأحمر اللعينة؛ بعدما قتلهم الأهالي؛ واعتبروه المحرّض!
ـــ هي المقادير تتحكّم بنا وقلما نستطيع أنْ نتحكّم بها؛ إذا عرفناها حقًّا؛ وهي قلما تُعرف. كان رأسه يستدير نصف استدارة؛ حينما تقع عيناه على مشهد مُلفت له في الطريق... كان يحاول نسيان كلّ شيء كي يتماسك برباطة جأش. فللتو بدأت رحلته نحو المجهول... لم يُخبر شيخه بما قرأه في جريدة الجمهوريّة عن جزيرة تيكوبيا...

فهوقد تعلّم أنْ يحتفظ لنفسه فقط؛ بنسبة (عشرة بالمائة) مهما كان مكشوفًا للآخرين.
وكان مظهره كدرويش بشعرطويل ولحية طويلة وخرس مؤقت؛ يضفي عليه جـلال المشهد وغرائبيّة الصورة في ذلك الزمن الأحمر... الرافض لمظاهرالإيمـان الدينيّ.
مضت ساعة... فشعربنعاس نتيجة اهتـزازسيارة الأجـرة... أما شيخه فكان صاحيًا يقظًا كذئب متحفّز... وصلت السيارة عند نقطة التفتيش الأولى؛ فلم يلتفت إليه أحـد.
هناك نقطتا تفتيش أخريتان على طول الطريق الطويلة نحوشمال العراق.
ـــ الحمد لله نجوت من الأولى... بفضل الله ثمّ بفضل هذا الشيخ المبارك أزمـــريّ.
النوم أفضل حلّ لي للحفاظ على خرس لساني؛ وعدم التعرّض لصداع التفكيرالثقيـل.
سأدع كلّ شيء للشيخ الجليل... فالرجل الكرديّ إذا أعطاك الأمان؛ أوفى لك صـدقًا.

****

كانت أخبارالانقلاب العسكريّ في مدينة الموصل يومذاك؛ فيما عُرف بثـــورة عبد الوهّاب الشواف على أشدّها؛ بعد فشل ذلك الانقلاب على الزعيم عبد الكريم قاسم...
ومثلما شهدت مدينة الموصل الثورة المسلّحة؛ قد نالت بغداد نصيبها من ذلك التوتر.
وانتشرت الاعدامات والاغتيالات على العسكريين وعلى المدنيين؛ من قبـل عناصـر كتائب المقاومة الشعبيّة للحزب الشيوعيّ؛ في تلك المدينة المحافظة على نهردجلـة.
واتهّم الشيوعيون عبـد الناصـــر؛ بدعم ذلك الانقلاب عبرسوريـة التي كانت ضمن الجمهوريّة العربيّة المتحدة مع مصر... عليه كانت الحدود مع سورية تحت المراقبة.
مضت نحوعشرساعات في الطريق من بغداد... فوصلت السيارة بركابها إلى مدينـة السليمانيّة في أقصى الشمال الشرقيّ؛ وهي مجاورة للحدود؛ عبرجبالها؛ مع إيران.
تفاجأ الصوفيّ كثيرًا بالوصول إلى مدينة السليمانيّة؛ وهولا يعلـم ما ستؤول إليه هذه الرحلة برفقة الشيخ سيروان أزمريّ؛ نسبة إلى جبل أزمـــرفي ضواحي السليمانيّة!؟
لكنه آثرالسكوت امتثالًا لنصيحة الشيخ حينما سأله في بدايّة هذا (المشوار). فالطاعة أسّ التصوّف بين الشيخ والمريد.
كان الجوّ في المدينة رائعًا... فالسليمانيّة تحيط بها جبال: كويـزه وزرده؛ مـا منحها مناخًا باردًا في الشتاء والخريف؛ ومعتدلًا في الصيف؛ ومثاليًا في الربيع.
واصطحب الشيخ أزمريّ؛ غريب إلى منزله شبه المنعـزل عند جبل أزمـر؛ خـارج تلك المدينة بنحو خمسة كيلومترات... إنه موقع يمنح الجمال جمالًا.
تمّ استقبال الشيخ من بعض أفراد عائلته بشغـف... ودخل مع ضيفه إلى قاعة بسيطـة الأثاث لكنها نظيفة وجميلة للزائرين؛ وتعرّف على شقيق الشيخ: كاكا أحمد أزمريّ.
وبعد استراحة... دوعي الضيف لتناول الطعام... بكرم بعيد عن طعام (الزهاد) في

الحضرة القادريّة ببغداد. ثمّ قال الشيخ لغريب:
ـــ ستقضي هنا عدّة أسابيع قبل أنْ تغادرإلى خارج العراق... ثمّ سأقـوم لك بترتيب سفرك إلى ماليزيا عبرإيران؛ ففي ماليزيا لديّ صديق سيهتمّ بك اسمه هارون داوود.
ـــ وهل ستبقى هنا طوال هذه المدّة ياشيخنا الكريم؟
ـــ سأعود إلى بغداد بعد أسبوع وسيتولّى أمرك حتى سفرك شقيقي الأصغرأحمـــد.
ـــ إذن: المشكلة في عبورالحدود؟
ـــ صدقت... رغم أنْ لا فاصل طويل للحدود من هنا؛ لكن الأمـربشأنـك سيحتاج للتدبيركي أحافظ على سلامتك... فأنت في عهدتي بوصية من الشيخ عباس نيشان... فنحن أهل التصوّف أوفياء بعضنا لبعض؛ لأنّ الوفـاء الحقيقيّ من أصول التصوّف.

****

كانت مدينة السليمانيّة؛ والتي بُنيت في القرن الثامن عشرمن قبل الأميرإبراهيم باشا بابان؛ وسمّيت باسم ولده سليمان؛ قد شهدت تفاعلات مكنونة الصراع؛ بين القـوى المحليّة والقوى الأخرى في كردستان العراق... فهي مدينة ذات ثقافة متمييزة ورؤى منفتحة وواقع متماسك الأواصريقوم على أسس فكريّة وتعليميّة وسياسيّة متقدّمة عما حولها من مدن... ولهذه المدينة خصوصيّة لهجتها الكرديّة؛ والمعروفة بالسورانيّة... ففي شمال العراق توجد ثلاث لهجات كرديّة هي: السورانيّة؛ والكرمانجيّة في أربيل والخورانيّة... وتاريخيًا نزعت السليمانيّة إلى تأسيس إمارتها المستقلـة عما حولها من النفوذ الفارسيّ والعثمانيّ؛ فكانت إمارة بابان؛ لمؤسسها أحمد الفقيه؛ ثمّ كانت دولـة باشـــا البرزنجيّ الذي قاد ثورة مسلّحة ضد الاحتلال الإنكليزيّ؛ وأعلـن السليمانيّة عاصمة مملكته الجديدة في عامّ 1919؛ حتى اعترفت بريطانيا بها.
ومثلما السيّاسة اليوم صبغة لسكان المدينة؛ كان التصوّف صبغة السكان فيما مضى. فتعايش التصوّف مع السيّاسة؛ دونما اصطدام ولا تنازع... وهذا جزء من شخصيّة هذه المدينة المنفتحة الثقافات والأفكار؛ فلاهي عربيّة ولا هي فارسيّة ولا هي تركيّة بل هي مدينة: السهل والوادي والجبل... ومن كلّ ذلك أخذت جغرافيتها وشخصيتها.
بعد مغادرة الشيخ سيروان أزمريّ مدينة السليمانيّة عائدًا إلى بغـداد؛ حيث الحضـرة القادريّة الجيلانيّة... تفرّغ شقيقه الأصغرأحمد أزمـــريّ؛ لمرافقة غريـب الصوفيّ. ووجد الصوفيّ سلاسة أكثرفي التعامل مع أحمد أزمريّ؛ ربّما بسبب تقارب العمر؛ مقارنة لعمرالشيخ سيروان؛ خاصّة وأحمـد حاصل هوالآخرعلى الشهادة الجامعيّة لكن باللغة الفارسيّة؛ قبل حصول الصوفيّ على شهادته باللغة الإنكليزيّة بسبع سنين.

كان أحمد أزمريّ شخصيّة ديناميكيّة؛ رجل وسيم وجاد؛ وهوايته هي الصيد البريّ في جبال ووديان المنطقة... وهو متزوّج من سيدة جميلة وربّة بيت فائقة التدبير... ولزوجة أزمريّ؛ شقيقة أصغرمنها اسمها بهار؛ لكنها غيرمتزوّجة... هي الأخرى ذات جمال فتّان؛ قد أكملت دراستها الثانويّة يومذاك؛ وتحلم بابن الحلال المناسب لها كما ظنّت. ووجدت بهاربغريب؛ الذي لا يكبرها إلا ببضع سنين؛ ذلك الحلم... إلا أنّ غريبًا آثرالعفاف فلم يقترب من بهار؛ رغم أنها كانت تتقرّب إليه كلما وجدت إليه سبيلًا... لأنّ الوفاء الصوفيّ لا يمكن خلطه بالغدرالشّيطانيّ؛ وإلا فقد المريد (ختم السرّ) الذي قد ناله من شيخه الأوّل؛ بعد مكابدة وصبروتجربة... فمثل تلك العلاقة ولوكانت لغرض الزواج؛ مشوبة بضرورة المكان المُلجأ؛ لا بقدسيّة الزواج كملجأ حصين في الغربة... فهوضيف راحل لا مقيم قارّ في تلك الديار؛ فلمَ التسلي؟

****

كانت بهارتخرج إلى السهل القريب الغني بالكلأ والزهوروالفراشات الملوّنة؛ ليراها غريب حينما يكون خارج المنزل للتنزّه؛ ولملأ العين بجمال الله في الطبيعة الجبليّة. بل كانت بهارحريصة على تقديم صينيّة الفطورإلى غريب بنفسها؛ حينما يكون زوج شقيقتها أحمد مشغولًا ولولبرهة عن ضيفه... أوخارجًا لضرورة إلى السوق القريبة. إلا أنّ غريبًا كان يغض عنها البصرويشغل نفسه بقراءة آيات من القرآن حتى تخرج. ولأنّ غريبًا يحبّ العسل الجبليّ؛ كانت بهارتضاعف له الكمية في الإفطار؛ لتقول له أنت عندي كالعسل... كان يفهم الصوفيّ إشاراتها: الحلوة العذبة؛ فزاده ذلك عذابًا وهوفي محنة وغربة ورحلة. فهل هذا امتحان له من امتحانات القدر؟ أم هوالابتلاء على المؤمن؛ ولوكان عفيفًا لا ينحرف ولا يخون ولا ينجرف؛ نحوأفعال الشّيطان الرّجيم؟ وكان يدعوالله كيوسف الصدّيق أنْ لا تضعف إرادته أمام الشهوات المغرية. لم تجد بهارإليه سبيلًا فهوعازف عن المغريات؛ ولوكانت جميلة كالربيع. لأنّ بهار اسم معناه: الربيع... وهي بجمالها الفتّان حقًّا؛ لأجمل من أزهارالربيع البديع.
ونجح على الابتلاء وانتصرعلى شيطان النفس الأمّارة بالسوء؛ فحفظ (ختم السرّ).
في عصرذلك اليوم أبلغه أحمد أزمريّ؛ أنّ تكيّة الشيخ محمود البرزنجيّ القريبة إلى جامع السليمانيّة الكبير... ستقيم ذكرًا صوفيًّا في الأسبوع القادم؛ وسيحضراه سويّة؟
وافق غريب الصوفيّ على ما سمعه من كاكا أحمد أزمريّ(*)؛ وقال في خاطره:
ـــ هل هذا الحضوردليل انتصاري على الشّيطان الرّجيم؛ فجاءت دعوتي لحضور هذا الذكرالمبارك؛ علامة لدنيّة على ذلك الصبرالمنير؟

توضأ وصلّى بركعتين شكرًا لله؛ وحمدًا لما أحسّه من صفاء روحي عميق؛ بعد ذلك الابتلاء وثقل القلق؛ فلم يتعوّد على الخيانة قطّ؛ ولوكان تحت ضغط ثقيل كالجبال. وفجأة اختفت بهار... فلم تظهرله؛ لا في السهل ولا في الوادي ولا عند الجبـل؛ ولا عند الإفطارالصباحيّ... ثمّ وجد عين ماء قريبة جارية صافية؛ فآثـرزيارتها؛ قبل حلول أوقات الصلاة بدقائق؛ ليتوضأ بمائها النميرالبارد... فكان ماؤهـا النقي يمنحه إحساس الجنّة. وهل الجنّة إلا أمـن دائم ومـاء عذب بارد؛ هما أساس النعيم المقيم؟
ـــ إنّ هذا الماء يطهّرمسالك النفس ومجاري الدم؛ من كلّ أثـم ران على القلـب... وكلما تذكّروالده باشـــا الصوفيّ ووالدته؛ اللذان غدرت بهما عصابة الكفّ الأحمر؛ تنساح الدموع الحارة من مآقيه... ويأخذه النحيب حتى يُفرغ ما في نفسه وفي خاطره الناعق شهقًا والضابح بحزن من حرارة الـرّوح؛ التي لا تهدأ في النهارولا في الليل.

(*) كاكا باللغة الكرديّة معناه: الأخ.

****

كان الوضع السيّاسيّ في بغـداد يـزداد سخونة على سخونة مع خريـف عامّ 1959... وكان غريب الصوفيّ حريصًا على قراءة جريـدة الجمهوريّـة والتي تصل إلى مدينة السليمانيّة بعد يومين من صدورها ببغداد؛ بسبب المواصلات (المتقطّعة) يومذاك. لذا كان الصوفيّ يلجأ إلى سماع إذاعة بغداد عبرالراديو... فهولا يريد أنْ ينقطع عـن أخباروطنه الساخن كالتنّور... لقد مضى صيف ذلك العامّ؛ وخرج تموزيّ من العالم السفليّ؛ ليتنفس قليلًا... إلا أنّ دراماتيكيّة الأحداث لا تتوّقف؛ فعصريوم السابـع من شهرتشرين أوّل من تلك السنة تعرّض الزعيـم والقائـد العامّ للقوات المسلّحة العراقيّة عبد الكريم قاسم لمحاولة اغتيال في شارع الرشيد ببغداد... وإنْ لم يُقتـل لكن الحدث خلط الأوراق السيّاسيّة الداخليّة وقلب الحسابات رأسًا على عقب... وتمّ شـنّ حملات اعتقال ومحاكمات... عرفت بمحاكمات المهداويّ. والمهداويّ هوابن خالـة الزعيم. حينما علم غريب بالخبر... إزدادت رغبته بالسفـرسريعًا خشية من امتداد التطوّرات الأمنيّة حتى تبلغ مدينة السليمانيّة؛ حيث يوجد فيها حزب شيوعيّ نشيط ومنظّم جيدًا. فسأل أحمد أزمريّ عن موعد سفره عبرإيران إلى ماليزيا؛ كما اتفق مع شقيقه الشيخ سيروان أزمريّ؛ قبل مغادرته لمدينة السليمانيّة عائدًا إلى بغـداد؟
ـــ إنْ شاء الله في الأسبوع القادم ستتعرّف على الشخص الثقة؛ الذي سينقلك بأمـان وسلام إلى الأراضي الإيرانيّة. فلا تقلق ياضيفي... فكلّ شيء سيتمّ بأوانـه المناسب والمحسوب... لأننا لا نريد تعريض حياتك للخطر. لقد تعودنا عليك ياصاحبيّ!

لم يسمع من الشيخ سيروان أزمريّ ولا من شقيقه أحمـد أزمريّ؛ أيّـة إشارة أوتلميح أنّ الصوفيّ مطلوب للسلطة الحاكمة... وهذا دليل على حصافة واحترام آل أزمـريّ الكرام لضيفهم النزيل غريب الصوفيّ. إنّ الرجال الأصـلاء يحتضنون ضيفهم بكرم وأمن وحرص وسموتصرّف راقٍ؛ لا يرقي إليه غوغاء النّاس.
لقد زاد ذلك الصوفيّ خبرة وتجربة وأخلاقيّة؛ ستنعكس على سلوكه في قادم الأيام...
ـــ ياصاحبي المحترم... أخشى أنني قد أصبحت ضيفًا ثقيلًا عليكم؟ فأنت موظـف حكوميّ؛ ومضى عليّ عندكم فترة ليست بالقصيرة... ولا أستطيع البقاء لفترة أطول. ويجب عليّ مراعاة ظروفكم... فمن حولكم جيران ومعارف وأصدقاء؛ ومثلما أنتـم حريصون عليّ؛ أنا والله لحريص عليكم أكثروأكثر.
ـــ سأقول لك شيئًا ياصاحبيّ الصوفيّ... مثلما آمناك على نسائنا؛ وكنت خيرأمين؛ والحافظ للغيب بغيابنا؛ سنأمنك على بقائك عندنا بكرم واحترام تام؛ فأنت خيرمقيم. وأدرك غريب أنّ أحمد أزمريّ كان يلّمح إلى موقفه الشريف من مسعى بهـــارمعه!؟

****

كانت أصوات الدفوف في تكيّة الشيخ محمود البرزنجيّ تصدح في إيقـاع متواصل... إنـه الذكـرالذي أخبربه أحمد أزمريّ صاحبه غريب باشـــا الصوفيّ قبل أيام مضت. وكان الصوفيّ متحمسًّا على غيرعادته لحضورهذا الذكرالصوفيّ الكبير...
ولج الاثنان إلى المكان المخصص للضيوف. بعد قليل همس أزمريّ بـأذن الصوفيّ:
ـــ نحن بانتظارالمُـلأ سـردار؛ وهوالشخص الذي سينقلك عبرالحدود إلى إيـران بأمان؛ ومن هناك إلى ميناء بندرعباس في الجنوب. إنه سيحضرإلى هنا وتتعارفا!؟
ـــ هذا خبرمريح لي ياكاكا أحمد أزمريّ... كم أسعدني منك هذا الخبر!
أشتدّ إيقاع الدفوف وارتفع صوت الذكرمع القراءة الصوفيّة والإنشاد... ونهض عدد من المريدين التابعين للتكيّة البرزنجيّة المباركة؛ وهم يرقصون رقصة الجذبة... مع هزّالرؤوس؛ وتحريك الأذرع في الهواء لخلق إحساس التفاعل بين الجسد والمحيط. فالرقص الصوفيّ هدفـه الانعتاق من الإحساس الماديّ؛ وتنظيف الجسد من الذنوب حتى يتطابق إيقاع الأرض مع إيقاع السّماء؛ فتنطلق الرّوح من عقالها الحابس لها... إنه شبيه بالنيرفانا الهنديّة؛ لتحقيق الخـلاص بالسكينة من ثقل الخطيئة؛ والعودة إلى براءة الميلاد الأوّل للإنسان؛ الخالية من الذنوب والخطايا الشّيطانيّة المكتسبة. إنــه تجديد للداخل ليستقرّالخارج في المريـد... ببركـة الشيخ؛ الحامل للطريقة الصوفيّة. لذا بعد طقوس الرقص تنتاب المريد حالة من الانطفاء والسكينة والإحساس بالسعادة. وبذلك هذا الرقص بمثابة الخمرالمعتّقة للرّوح المتعبة من فساد الحياة ولوثتها اليوميّة.

وفجأة نهض غريب باشـــا الصوفيّ؛ بعدما نالته حالة الجذبــة الرّوحيّة واهتــزازفي المشاعرالصوفيّة... ليدخل حلبة الراقصين الصوفيين. وانتبــه الحضورلهذا الغريب. وأشارأحمد أزمريّ للشيخ؛ أنه تابع لهم... فأذن له بالدروشة مع بقيّـة الدراويش من المريدين... وبعد دورات منتظمة من مركــزساحة الرقص إلى الأطراف؛ وبالعكس؛ انفرد غريب بتلك الساحة؛ وهويؤدي رقصة لم يعهدها الحضورمن رجال التصوّف. لقد تذكّروالديه الذبيحين من قبل عصابة الكفّ الأحمرالشيوعيّة... وكان وجه أبيه مع وجه أمّه يصرخان بمهمازمن شهقات نفسه الساخنة على رغم ارهاصات الجــوّالبارد في شمال العراق... ومع إيقاع الدفوف الصادحة؛ انطلق غريــب برقصة جديدة من (تأليفه) سمّاها: رقصة الذبيح... هيجّت الحضوروأشعلت الذكروسخنّت الأجـواء؛ بما لم تعهده تلك التكيّة العتيدة في السليمانيّة... حتى تعبت أكفّ الناقرين في الدفوف؛ وما وهـن غريب وما سكن حتى بلغ خمرة التصوّف بدموع الرّوح وأنفاس الجريح... فنهض الشيخ الكبير... وأخــذه من ذراعه الأيمن وقبّل رأسه؛ وسط تكبيرالمريدين. ثمّ أشارالشيخ الكبيرإلى (وقف الذكر)... حتى تناول (العشاء) للحضوروالضيوف. لكن غريبًا لم يتناول إلا قطعة واحدة من حلوى (مـنّ السّما) كي تمنحه طاقة السّكر. وتعارف الصوفيّ مع المُلأ سـردار... الذي أُنتدب لمرافقته بالسفرعبرإيران كما هــو متفق عليه قبلًا مع الشيخ سيروان أزمريّ ومع شقيقه الأصغرأحمد؛ وقال ســردار:

ـــ ياأخي غريب إنْ شاء الله بعد ثلاثة أيام سننطلق لعبورالحدود إلى إيران؛ هيّأ لي نفسك... وبعدها ستكون برفقة أحد أصحابنا الموثوقين ليوصلك إلى ميناء بندرعباس في أقصى الجنوب... إذْ ستنطلق من الميناء سفينة باتجــاه أبوظبي ومنها إلى الهند... ثمّ تواصل رحلتك من هناك إلى ماليزيا بمعيّة الله. وتذكّرأنّ السّفينة ذاهبة إلى الهنــد.

ـــ سأكون جاهزًا إنْ شاء الله من الغـد... وأنت ستكون لي نعم الرفيق في الطريق.

في هذه الأثناء تقدّم شيخ التكيّة ليسلّم على غريب باشـــا الصوفيّ؛ بعدما رأى ما قدمّ في الذكرمن جذبة جديدة لم يراها من قبل... التي سمّاها برقصة الذبيـح؛ فيمـا سمّاها الشيخ برقصة غريب. لكن الصوفيّ لم يكُ راغبًا التوسّع في علاقاته خشية من ذيـوع اسمه فيصل إلى زبانية السلطة الحمراء... ما يهدد حياته بل ويهدد حياة الذين احتمى بهم في بغـداد والسليمانيّة... وأدّعى أنه تاجرأخشاب؛ يستوردها من جنوب شرقيّ آسيا بأسعارتنافسيّة مناسبة لسكان البلاد... وسيسافرقريبًا. وقال له الشيخ:

ـــ لم أراك أكلت من عشائنا ياضيفنا غريب؟

ـــ شكرًا تناولت قطعة حلوى (منّ السّما) لتمنحني الطاقة بعد رقصتي الصوفيّة. لقد أبلغني من قبل أحد رجالات التصوّف أنّ حلوى (منّ السّما) مع السلوى؛ طعام الأولياء الصالحين... فالحمد لله؛ أشبعتني هذه الحلوى مع الماء وزيادة!

انتبه الشيخ لهذا الزهد في الطعام من قبل غريب الصوفيّ... لأنه قد اعتاد على رؤية أغلب المريدين؛ المسارعة لأزدراد طعام الموالد إزدرادًا؛ كأنّهم في مسابقة لذائذ... فمال هذا الشاب زاهد في الطعام الدسم؟ وقال الشيخ في خاطره الصامت الكلم:

ـــ الزهد في الطعام؛ مع إفشاء السّلام وقلّة الكلام؛ رفيق المتصوّف التام؛ بالحفاظ على ختم السرّالخاصّ والعامّ... وبعلم الله إنّ هذا الصوفيّ له شأن آخرفي قادم الأيام.

ثمّ استأذن غريب الصوفيّ وكاكا أحمد أزمـريّ؛ وغـادرا تكيّة الشيخ البرزنجيّ إلى المنزل... فلم يبقَ على سفرغريب إلا القليل؛ بعد انتظارليس بالقليل.

وفي الطريق قال أزمريّ للصوفيّ:

ـــ هذه الليلة قدّمت رقصة صوفيّة سيكون لها مكانة في التكايا... هل رأيت الشيـخ البرزنجيّ كيف أهتـمّ بك... من دون كلّ المريدين؟ إنـه شيخ ذي سموجليل المقام.

ـــ الحمد لله... التصوّف عندي بحـرروحي عميق؛ يبدأ ساحله برقصة تعيد توازن الرّوح بموج الحياة في الجريح المذبوح... كي يظلّ الحفاظ على ختـم السرّمن البوح.

****

في زيارة مفاجئة بادرشيخ الطريقة الرفاعيّة في مدينة سامراء الشيخ عبـاس نيشان؛ بالوصول إلى الحضرة القادريّة ببغداد؛ وملاقاة شيخ الطريقة الجيلانيّـة فيها؛ وقتها صديقه الشيخ سيروان أزمريّ... واستقبل من قبله بحفاوة وترحيب.

كان الحضورضحى من أواخرشهرتشرين أوّل من ذلك اليوم المشرق الشّمس:

ـــ أهلًا وسهلًا بك ياصاحبي الكريم. لقد فاجأتني بهذه الزيارة المباركة!

ـــ وبك ياشيخنا الكريم... قلت أسلّم عليك؛ ولـديّ مقترح أراه ضروريًا في هـذه الظروف الصعبة والعسيرة على النّاس في العراق؟

ـــ خيرإنّ شاء الله ياشيخ عباس؟ قل وأسمعـك؟

ـــ تعلم أنّ المدّ الشيوعيّ الأحمرطغى على البلاد والعباد... وأصبح يهـدد الإيمان والمؤمنين؛ بما يدعو إليه من إلحاد صريح؛ وإعتبارالدّين أفيون الشعوب وغيرذلك من شعارات كافرة تسيء لتاريخنا وتراثنا وديننا الحنيف. ونحن من شيوخ التصـوّف في البلاد... ولدينا دالة على العلماء والمريدين في الشمال وفي العاصمة بغـداد؛ كما أنّ علماء الجنوب سند لنا في الدفاع عن حياض العقيدة والوطن. لذلك أقترح أنْ نبـدأ بأقامة الموالد والأذكاربكثافة في طول البلاد وعرضها؛ في التكايا والزوايا الصوفيّة وفي المساجد وغيرها... لنحمي الشباب من الانجراف مع هذا التيارالأحمرالملحـد...

ـــ أنا معك... ويـدي بيدك؛ فمن مهـام رجال التصوّف؛ حفظ صفاء العقيدة بسلام من كلّ شيطان رجيم من الإنس والجنّ... وصدق قول الشّاعرفي رجالات التصوّف:

{ فقادة الصوفيّ أهل الصفّة ..... في زمن الرسول؛ فأعلم وصفه }.
ومتى إنْ شاء الله نبدأ بهذه الأذكاروالموالد ياصاحبي؟
ـــ حينما سيحلّ علينا شهررمضان المبارك بعد أسابيع قليلة؛ ومن لياليه تكون هذه البدايّة... على أنْ تستمـرّبعد رمضان لأسابيع أخرى حتى نغطي بها عموم البـلاد... ونشجّع على حضورها الجميع خاصّة طلاب الجامعات والمعاهد والمدارس الثانويّة.
ـــ على بركة موافق على مقترحك الجريء... وسأبلّغ بقيّة الشيوخ وكافة المريدين لتجهيزساحة الأذكارفي الحضرة القادريّة مع أوّل ليلـة من ليالي رمضان إنْ شاء الله.
ـــ أودّ أنْ أسألك ياشيخنا الكريم عن أخبارصاحبنا غريب باشا الصوفيّ؟
ـــ كن مطمئنًا... على الأرجّح الآن قد غادرمدينة السليمانيّة؛ ودخل إلى الأراضي الإيرانيّة بأمـــان ... حتى يصل إلى ميناء بندرعباس؛ ومنه إلى ماليزيا؛ كما أراد.
ـــ هذا خبرجيد... لقد أتعبتك معه؛ وبصراحة هوشاب مظلـوم ويستحق المساعدة.
ـــ وهوكذلك فعلًا. لقد أدّيت الواجب عنك؛ ووصيتك لا تـردّ عندي ياشيخ عباس.

****

عبرغريب باشـــا الصوفيّ ومرافقه المُلأ سـردارإلى إيران من خلال مسالك وديان تلك الجبال المشتركة عبرالحدود... للوصول إلى مدينة كرمنشاه.
في الطريق تعرّض الاثنان إلى (قطاع طريق) من الجيـاع؛ الذين يسعون الحصول على ما يعتاشون منه بتسليب العابرين ... بسبب الفقـرالمدقع في تلك المنطقة النائية.
كانوا ثلاثة رجال يحملون أسلحة بيضاء؛ عبارة عن سيـوف بدائيّة... يعلوها الصدأ.
نال غريب الخوف من أولئك المسلحين الجياع... إذْ كانوا في مظهردال على بـــؤس شديد... لكن أحدهم عرف المُلأ سردار؛ فأعتذرمنهما بل انكبّ على يد المُلأ وقبّـلها معتذرًا عن سوء التصرّف... وسمحوا لهما بمواصلة المسيربأمان.
وبعدما ابتعدا عنهم سأل غريب المُلأ سردارعما قام به ذلك الصعلـوك من تقبيل يده؟
ـــ عرفني إنني من رجال التصوّف... وهنا يحسبون حساب شيوخ الطريقة؛ لذلك قبّـل يدي واعتذر. بل أنت لم تنتبه لما قام به... لقد أعطى إشارة الأمان لنا لأصحابه الذين يكمنون فوق إحدى الصخورالجانبيّة... كي لا يعترضوا طريقنا.
ـــ إنه الجوع يامُلأ سردار!
ـــ نعم إنه الجوع الشديد؛ فالقحط ضرب المنطقة منذ أكثرمن سنتين.
ـــ قال النبيّ محمـد: { أكثركم شبعًا في الدنيا؛ أكثركم جوعًا يـــوم القيامة }.
وفي حديث آخرقال النبيّ: { إنّ الله يباهـــي الملائكة بمنْ قـلّ طعامه في الدنيا }.

ـــ نعم الجوع يؤدي إلى صفاء القلب والرّوح والجسد. وزهد التصوّف يعاون على إشباع الجياع في العالم اليوم... من خلال الاقتصاد وعدم الإسراف والتبذير.
ـــ صدقت الجوع طبّ لنفوس النّاس... فمعظم أمراضهم من تخمة الطعام.
ـــ هل تعتقد ياصاحبي؛ أنّ زهد الصوفيّة يحلّ أزمة الجياع في العالم؟
ـــ إنْ لم يحلّها يامُلأ سردار؛ فإنه يساعد على تخفيفها كثيرًا... فهناك الملايين من الجياع في كلّ مكان... كما أولئك قطاع الطريق الجياع. إنّ التصوّف ملاذ الفقراء والمحتاجين والمساكين... ألم تسمع قول الشّاعرفيهم:

{ ونسبوا الصوفيّ للكمال ..... وضربوا معناه في المثالِ }.
{ فهوكالهواء في العلو ..... ثمّ كمثل الأرض في الدنوِ }.
{ ثمّ كمثل النّارفي الضياء ..... ثمّ كمثل الماء في الإرواءِ }.

ـــ أنت صوفيّ وشاعرياأخي غريب الصوفيّ؟
ـــ لست كذلك... فلا أريد المديح لأنه يصيب صاحبه بالغرور... والغرورهومن ضعف النفس... إنما أنا عبد من عباد الله؛ خرجت من بلادي؛ بسبب الظلم الأحمر.

****

بعد خروج غريب الصوفيّ من أرض العراق... جاءت الأنباء من بغداد بوقوع صراعات حزبيّة حادّة بين القوى المتناقضة في سبيل السلطة. أوكما قال المنفلوطيّ: في سبيل التاج... والجميع يحمل بندقية للقتل؛ لا برنامج عمل لصالح خدمة النّاس. فالحزب الشيوعيّ الحاكم؛ شنّ حملات واعتقالات جماعيّة أشاعت الرعب في عموم البلاد... بالمقابل شنّت الأحزاب الوطنيّة والقوميّة والدينيّة حملات تكفيروعمالة على الحزب الحاكم... وذهب جراء ذلك مئات الضحايا بعنف دمويّ لم تشهده بغداد منذ عهد التتار. كما امتلأت السجون بالآلاف من الشباب الناقم على الدكتاتوريّة الحمراء التي تستمدّ توجهاتها وشعاراتها من الخارج... ولا تكاد تمرّليلة من ليالي تلك الأيام؛ إلا وتجد السلطة آلاف المنشورات السريّة التي توزّع في الشوارع والطرقات أوتثبّت على أعمدة الكهرباء والجدران لمباني المدينة؛ العامّة والخاصّة... كما أُستثمر عدد من الخطاطين؛ لكتابة شعارات على أسيجة المباني وجدران المنازل في كلّ مكان... وافتقد الأمن في العاصمة؛ خاصّة في الليل. وأقفرت المناطق الجميلة فيها للترفيه والسهرة؛ مثل شارع أبي نؤاس؛ حيث مسكوف السمك؛ والمطلّ على نهردجلة مباشرة. كما وشل رواد دورالسينما المتمييزة ببغداد؛ التي كانت رائجة في المدينة. وحيث ما كنت تسيرستواجهك مفرزة أودوريّة من جنود السلطة مع المقاومة الشعبيّة؛ التابعة للحزب الشيوعيّ. وهم أشدّ وطأة وعدوانيّة على النّاس من الجنود والشرطة.

وانقلب مزاج المدينة المحبّة للحياة والتفاعل الاجتماعيّ إلى جحيم من الخوف الشديد والتوّجس والريبة من الجيران... فلا أمن ولا أمان ولا ثقة بين النّاس؛ فطـال الليل؛ ولا يعلم السكان متى سينجلي عنهم: الهمّ والغمّ والكرب الأسود والأحمر؟
ووسط هذا الصراع المتداخل الخنادق؛ كما يقول أهل السيّاسة... كانت الدعايــة من إذاعة صوت العرب من القاهــرة؛ تفعل فعلها المثيرللتهييج... وانتشرت الإشاعات والإشاعات المضادة... فمن الصعب على الرأي العامّ المحليّ؛ تصديق أيّــة إشاعة؟ لقد فقدت بغداد براءتها التي تشكّلت بعد قيام النظام الملكيّ في أعقاب رحيل السلطان العثمانيّ... ودخلت المدينة في أتــون ساخن؛ ضحاياه من الأبرياء؛ والتهم تقوم على الظنّ... بالتالي المحاكمات الأصوليّة القانونيّة غابت عن النّاس... في أقدم وطن نشأ فيه القانون منذ عهد الملك حمورابـيّ قبل أكثرمن أربعة آلاف سنة من التاريخ القديم. فإذا أردت معرفــة الحقيقة من الساسة؛ ستظفربالأكاذيب البشعة التي تصيب التاريخ بالعقروالعقم... وستجد بدل حبرالكتابة؛ حبرًا أرجوانيًا يحتوي على أصناف عدّة من الدماء المسفوحة في الشوارع والطرقات والأزقة؛ كمسالخ الخـراف من دون مبالغة.

****

بعدما أوصله المرافق إلى بندرعباس في أقصى جنوب إيران؛ ركب غريــب في تلك السّفينة المتجهّة نحوالهند... إلا أنها ستتوّقف ليوم واحد في ساحل أبوظبي كي يصعد على متنها بعضًا من تجـارمن جنسيّات متعددة نحوتلك البلاد ذات البهارات والتوابل. بعد تلك الاستراحة مع الانتظار؛ صعد التجارإلى السّفينة من ساحل أبوظبي يومذاك. كانوا خمسة؛ أحدهم من مدينة العيـن الإماراتيّة؛ واسمه: الحاجّ عبد الله المزروعـيّ. لقد كانت سنة 1959 توشك على الرحيل؛ ليدخل النّاس في عقد جديد من السنين مع عامّ 1960... مستبشرين خيرًا بالسنة الجديدة.
وانطلقت السّفينــة الهنديّـة تلك بطاقمها وبركابها... ولم يـكُ فيها من الجنسيّة العربيّة سوى العراقيّ غريب الصوفيّ؛ والتاجرالإماراتيّ عبد الله المزروعيّ.
وتعارف الاثنان... فكلّ غريب للغريب نسيبُ؛ كما قالها الشّاعر.
ـــ أهلًا وسهلًا بك ياأخي غريب الصوفيّ... سعيـد برفقتك لأيام ولياٍل في البحـر.
ـــ وأهلًا وسهلًا بك ياأخي عبد الله المزروعيّ... وأنا أسعد برفقتك في هذه الرحلة. هل مقصدك إلى الهند؟
ـــ بل مقصدي إلى ماليزيا. فأنا تاجرأخشاب؛ وأخشاب غابـات ماليزيا؛ الأفضل والأرخص؛ وهي مرغوبة لدينا في البناء والتجارة المحليّة.
ـــ هذا خبرجيد... أنا أيضًا قاصدًا إلى ماليزيا.لكن ليس لتجارة الأخشاب بل للإقامة

الطويلة... خصوصًا وأنا أجيد اللغة الإنكليزيّة؛ لغة البلاد الرسميّة هنالك.
ـــ إذن سأكون محتاج إليك بالترجمة هنالك... لأنّ لغتي الإنكليزيّة جد متواضعة.
ـــ ولا يهمك ياأخي؛ سأعاونك بالترجمة من دون مشكلة.
ـــ وكم ستأخذ أجورًا لذلك؟
ابتسم غريب وقال:
ـــ لن آخذ شيئًا بل سأترجم لك مجانًا.
ـــ لن أرضى إلا بدفع أجورالترجمة.
ـــ إنْ شاء الله نصل بالسلامة؛ ولن نختلف على هذا الأمرياأخي.
وهكذا دخل الاثنان في حوارحميم؛ حتى وصلا إلى وصف أحوال البلاد والعباد...
ـــ سمعنا أنّ الحزب الشيوعيّ في العراق قام بجرائم قتل كثيرة؛ هل هذا صحيح؟
ـــ مع الأسف صحيح ياأخي عبد الله... حتى سحلوا الجثث في الشوارع؛ لذلك أنا غادرت بغداد للإقامة بعيدًا عن العراق في ماليزيا؛ وربّما لما أبعد من ماليزيا.
ـــ وهل لديك أحدًا في مدينة كوالالمبورعاصمة ماليزيا؟
ـــ لن أعدم المُعين؛ بعون الله الوهّاب... فهوقريب من كلّ غريب. وأنا الغريب...
ـــ لا تقلق ياغريب؛ فلديّ تاجرصديق ماليزيّ؛ سأطلب منه معاونتك في غربتك.
وتبادلا ابتسامة ودّ مشتركة... دلّت على التوافق الوديّ:
ـــ وحضرتك هل أنت من أبوظبي نفسها أم من مدينة أخرى؟
ـــ أنا مقيم في مدينة العين... والتي تبعد عن أبوظبي بنحو(180 كم).
ـــ قرأت أنّ العين سمّيت بهذا الاسم لكثرة عيون الماء والأفلاج فيها؟
ـــ صدقت ياأخي... واليوم عليها حاكمها الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان وهو يعمل ليل نهارلادخال النهضة إليها؛ من بناء المدارس والمستشفيات وتشجيرالمدينة؛ لذلك المدينة تحتاج إلى الأخشاب بسبب النهضة العمرانيّة التي تشهدها مدينة العين...
ـــ هذا الشيخ الحاكم سيحقق الكثيرلمستقبل البلاد والعباد... وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.
ـــ بالفعل كلّنا نرى فيه الحاكم والقائد المنتظرلأبوظبي وما جاورها من مشيخات...
ـــ أنت تعلم أنّ هذه السّفينة مسارها ينتهي في بومباي الهند... ومعنى ذلك سنضطر أنْ نحجزعلى متن سفينة أخرى إلى ماليزيا؟
ـــ أعلم بذلك... وسنبقى سويّة في السّفينة الأخرى إنْ شاء الله حتى نصل إلى مدينة كوالالمبور... فهي رحلة شبيهة برحلة السندباد في ألف ليلة وليلة.
ـــ ما دام أنت معي فلن أواجه صعوبة في اللغة الإنكليزيّة؛ في الهند أوفي ماليزيا.
ـــ كن مطمئنًا... أنا وأنت أخوين؛ ولساننا واحد؛ والسفريكشف معادن النّاس...

شعرغريب براحة نفسيّة بعدما تعارف على عبد الله المزروعيّ؛ وكما قالوا: الرفيق قبل الطريق. كذلك كان شعورعبد الله مطابقًا لمشاعرغريب في تلك الرحلة البحريّة.
وفي منتصف المسافة البحريّة... لاحظ غريب أنّ عبد الله يعاني من اضطـراب غير طبيعيّ؛ إنه دوارالبحر؛ مع دوخة وغثيان وصداع... فسأله عن حالته الصحيّة؟
وفجأة سقط عبد الله مغميًّا على الأرضيّة... فسارع غريب لمساعدته؛ وكان لدى أحد المسافرين الزنجبيل؛ وهوعلاج فعّال للغثيان... وبعد ساعة عـاد عبد الله إلى وضعه الطبيعيّ؛ شاكرًا رفيق سفره غريب... وهكذا توطدت العلاقة الإنسانيّة بينهما بـودّ.
ثمّ وصلت السّفينة إلى ميناء بومباي الهنديّ... ونـزل الركاب منها. ولأنّ السفـرإلى ماليزيا من بومباي يحتاج إلى يومين من الانتظار... قررالصوفـيّ والمزروعيّ أنْ يقوما بجولة في المدينة... فهي مركزالتجارة في غرب الهند... وذات صلات وثيقـة مع دول الخليج العربيّ تجاريًا؛ منذ أنْ اتخذتها شركة الهند الشرقيّة البريطانيّة مقـرًّا لها... وازدادت أهميتها بعد افتتاح قناة السويس.
هكذا قضى الصديقان ليومين من الجولات في المدينة التي كانت ميناء الهند الأكبر...

****

لقد وصل العراقيّ غريب الصوفيّ ورفيق سفره الإماراتيّ عبد الله المزروعيّ سويّـة إلى كوالالمبورمع بدايّة عامّ 1960...
وحالما استقرّ بالغريب المقام؛ سأل عن هارون داوود صديق الشيخ سيروان أزمريّ كما أبلغه من قبل... لكن السّيد هارون قد توفّي قبـل أيام من وصول غريب الصوفيّ.
ـــ لابدّ لكلّ رحلة من تحديّات ومعوقات... لكن الله لن ينسى عبده في الغربة أبدًا...
وفي اليوم التالي التقيا الصوفيّ والمزروعيّ على مائدة الإفطارالصباحيّ...
ـــ عصرهذا اليوم سأصطحبك إلى صديقي التاجرالماليزيّ الحاجّ نجيب الله خـان... فهورجل موثوق ويجيد الإنكليزيّة والعربيّة؛ إضافة للغته المحليّة المالاويّـة؛ ويمكنك أنْ تثق به وتسأله عما تريد؛ فهوصاحب مكانة وسمعة وله علاقات في كوالالمبـور.
ـــ هل التقيت به ياصاحبي؟
ـــ أمس التقيت به... وأعلمته بشخصك؛ وهويرغب بلقائك.
ـــ إذن: عصرهذا اليوم سألتقي به إنْ شاء الله؛ وستكون معي؟
ـــ على بركة الله... سنصلي العصرونتطلق إليه سويّة.
كانت العاصمة الماليزيّة كوالالمبورمنذ استقلال البلاد عن بريطانيا في عـامّ 1957؛ تشهد نهضة سياسيّة وتجاريّة وعمرانيّة مطردة...
وعند العصركان اللقاء بالتاجرالماليزيّ الحاجّ نجيب الله خان... الذي رحب بغريب؛

أيّما ترحيب... فالشخصيّة الماليزيّة لطيفة ودمثة مع الغرباء. وقدّم لهما ذلك الحـــاجّ شراب الكولاك؛ وهوشراب ماليزيّ يساعد على اطفاء العطش لفترة طويلة... وهـو مشروب وطنيّ لأغلبية المسلمين في تلك البلاد؛ خاصّة في شهررمضـــان... كما في غيرشهررمضان... وبعد مجاملات؛ سأل الحاجّ نجيب الله خان غريبًا:

ـــ مرحبًا بك في ماليزيا أيّها العراقيّ... لقد سافرت إلى العـراق من قبل؛ وزرت ضريح الشيخ عبد القادرالجيلانيّ وضريح الإمام أبي حنيفة النعمان ببغداد.

بعدما سمع غريب ما قاله الحاجّ؛ شعربالارتياح العامّ:

ـــ قبل المجيء إلى بلادكم الجميلة كنت في حضرة الشيخ الجيلانيّ ببغـداد. وكنت أتمنى أنْ التقيت بك من قبل ياسيدي؟

ـــ لا فرق التقينا في كوالالمبور... سل ما تريده مني يا حضرة الصوفيّ؟

ـــ أرجوأنْ تساعدني بالسفرإلى مدينة هونيارا عاصمة جزرسليمان؟

ـــ لا مشكلة لديّ في ذلك... وهل لديك أحدًا من معارفك هناك؟

ـــ لا يوجد لديّ أيّة معرفة فيها...

ـــ ومتى تريـد السفـــرإليها؟

ـــ حينما تتوفرسفينة ركاب...

ـــ هناك خطّ لسفينة ركاب تبحرإلى مينائها المسمّى: كـروز... وفيـه صديـق لي اسمه: بيتـرمانيلـي؛ وهومسيحيّ؛ يمكنه أنْ يخدّمك... فبيننا علاقة وديّـة قديمة.

ـــ هذا ما أريده من حضرتك أيّها الحاجّ الكريم... ومتى ستبحرسفينة الركاب؟

ـــ ليس قريبًا؛ ولكن سأبلّغك بموعدها الحقيقيّ لاحـقًا. ربّما بعد شهـرمن الآن؟! من المفيد لحضرتك أنْ تقضي شهرًا هنا في ماليزيا؛ لتطلّـع على معالمها الجديدة... وهذا سيفيدك عمليًا في حُسن التعامل مع سكان جزرسليمان؛ حيـن السفروالاستقرار.

انتبه التاجرعبد الله المزروعيّ لطلب رفيق سفـره العراقيّ غريب باشـــا الصوفيّ:

ـــ ليس من الفضول أنْ أسألك: وماذا ستفعل في جزرسليمان؛ أيّها الصديق؟

ـــ لأمرخاصّ بي؛ ربّما ستسمعون به لاحقًا...

وقال التاجرالماليزيّ:

ـــ كن حذرًا ياغريب فتلك البلاد مكوّنة من أكثرمن مائة جزيرة؛ وهي منقطعة عن العالم... أقرب الدول إليها بعد ماليزيا؛ أندنوسيا وأستراليا وجزيرة فيجـي؛ فهي في أقصى الأرض؛ ضمن المحيط الهاديء... وفيها قبائل لا تزال لا تعرف الحضارة.

ـــ مهما كانت فلن تكون أكثرظلمًا وقسوة من عصابة الكـفّ الأحمـرفي العـراق!

ـــ وما هي عصابة الكفّ الأحمرياصاحبي؟

وسـرد غريب باشـــا الصوفيّ أطرافًا من مشاهـد تلك العصابة وامتدادها فيما سمّي

بالمقاومة الشعبيّة الشيوعيّة... وكيف قتلوا والديه غدرًا؛ وأرادوا قتلـــه قبل هروبه.
وأدرك التاجران: الماليزيّ والإماراتيّ؛ السبب العميق لهجــرة غريب الصوفيّ إلى أقصى الأرض في وسط المحيط الهاديء. وقال المزروعيّ:
ـــ البلاد التي تفتقد الأمن الداخليّ؛ لــن ينفع فيها شيء من العمران والتجارة؛ ولو كانت أغنــى بلاد الله... كبلادنا العربيّة؛ المبتلاة بالفتــن السيّاسيّة والطائفيّة الضيقة.
ـــ صدقت ياأخي... ماليزيا اليوم تمتازبالاستقرارمن بعد رحيــل الاستعمار؛ على الرغم من تعدد الطوائف والأعراق والأديان... الأمن والاستقرارمن نعم الله الكبرى.
وسالت الدموع على خديّ غريب الصوفيّ... بعدما سمع ما قاله: خان والمزروعيّ:
ـــ لعلّي أعيد بعض ما فقدته بلادي... على طريقتي الخاصّة في هذه الغربة الثقيلة!
ولتلطيف أجواء اللقاء... بادرالتاجرالماليزيّ إلى تغييرمجرى الحديث؛ نحوالتجــارة والمال والعلاقات بين الدول الإسلاميّة لتبادل المنافع؛ خصوصًا في الموارد الأوّليّـة.
لم يدع التاجرالماليزيّ صاحبيه المزروعيّ ورفيقه الصوفيّ إلا بعد إقامة دعوة عشاء كريمة لهما في منزله... إعرابًا عن حُسن وكرم الضيافة.

****

وحــلّ شهررمضان... وكما اتفــق الشيخان عباس نيشان وسيروان أزمــريّ... فقــد انتشرت موالد الأذكارالصوفيّة في مدن العراق بكثافة... في تحدّ غيــرمعلن ضد المدّ الشيوعيّ الساعي لتقويض إيمان السكان الراسخ؛ بشعارات هوسيّة؛ تناقــض حقيقة الشعب بكلّ طوائفه المؤمنة...
كانت تلك الموالد تقام بعد صلاة العشاء؛ فيتوافد إليها الرجال والشباب والفتيان؛ في حسّ إيمانيّ مضاد للدعوات الحمراء التي تبتغي خاصّة غسل عقول الشباب لابعادهم عن الدّين وطقوسه؛ بالتسفيه والتخويف والتشكيك؛ وطرح بدائل (مُغريــة) ومُلهية باسم الحداثة والانفتاح والحضارة... ضد التخلّف والانغلاق من (أفيــون) الشعوب.
لم تنتبه السلطة الحمراء بادي ذي بدء لأبعاد إقامة هذا الكم اليوميّ من موالد الأذكار في مدن العراق... لكن الخبرتسرّب إليها لاحقًا.
واجتمع المعنيون من السلطة لمعالجة الموقف... بعضهم رأى أنّ العنــف هوالسبيل؛ وبعضهم رأى بأنّ المنع المباشرببيان يُذاع ضد هذه النشاطات المتخلّفة؛ التي تهــدد السلم الأهليّ؛ وبعضهم رأى عدم الاهتمام بها؛ كي لا تتحوّل إلى ظاهرة شعبيّة ضد فلسفة الحكم الجديدة؛ فتكسب الأتباع؛ وبعضهم اقترح تفجيرأماكن الموالد والأذكار!
وانتهى شهررمضان؛ لكن استمرارمولــد الأذكارلم يتوّقف؛ كما راهنت السلطات.
فلجأت السلطة إلى ارسال تهديدات مكتوبة إلى التكايا لتخويف النّاس.

واحتدم الصراع: الأخضروالأحمر... بين السلفيين الصوفيّة والشيوعيين الملحدين؛ كما كان النّاس يصمونهم بالإلحاد والكفر... وخشي الكثيرون من هذا الصـراع الذي يتصاعد... ولم يبالِ الصوفيّة بكلّ تلك التهديدات الحمـراء؛ وواصلوا (برنامجهم) فتوسّعت دوائرالحضور؛ أضعافًا مضاعفة... بل امتدّ الحضورإلى النساء؛ وهذا ما لم يكن الشيوعيون يحسبون حسابه... فكان مفاجئًا لتوقعاتهم!
واجتمعت قيادتهم لدراسة الموقف المتصاعد... فقرروا القيام بأفعال انتقاميّة سريعـة.
وهكذا شهدت العديد من تكايا الصوفيّة في مدن بغداد والموصل والبصرة؛ تفجيرات أودت بالعديد من الضحايا... ثمّ خرجت المظاهرات الصاخبة المنددة بأفعال الحـزب الشيوعيّ؛ وخيشة من امتدادها؛ أصدرت السلطة بيانًا يعلـن احترامه لكلّ النشاطات الاجتماعيّة لتقريب أبناء الشعب بعضهم مع بعض... شرط عـدم الترويــج للمباديء الهدامة وشعاراتها الدينيّة السلفيّة التي تمسّ (فلسفة) الدولة الجديدة والحزب الحاكم.
وهكذا نجح الصوفيّة بفرض رؤيتهم الخضراء؛ المضادة للرؤيــة الشيوعيّة الحمراء.
وتضامن المعلمون في المدارس على تأييــد الرؤية الخضراء على الرؤية الحمراء...

****

قضى غريب شهررمضان في ماليزيا... مع صاحبه تاجــرالأخشاب السّيد عبد الله المزروعيّ؛ وقريــب منهما كان التاجرالماليزيّ نجيب الله خان.
لقد تعرّف غريب على تلك البلاد وعلى الكثيرمن تقاليدها وأعرافها الإسلاميّة وغيـر الإسلاميّة... وأدرك أنّ التعايش بين المختلفين سُنّـة الحياة الجديدة ولتطوّرالحضارة؛ فليس ثمــة شعبًا نقيًا مائة بالمائة؛ لا عرقًا ولا دينًا ولا ثقافة ولا أمزجة ولا شخصيّة.
بل التنوّع سمة النّاس في الشرق والغرب... ومن هذا التنوّع يولد الإبـداع والمستقبل.
ففي ماليزيا النسبة الأكبرمن السكان من المسلمين وإلى جانبهم هناك المسيحيون وثمة اللادينيون والبوذيون؛ وغيرهم من الأديان واللأديان؛ ومن أعـراق وثقافات شتى...
ـــ كانت نصيحة نجيب الله خان لي مفيــدة... بأنْ أقضى هذا الشهرفي بــلاده. إنه رجل خبير؛ فبعدما عرف أنني ذاهب إلى جزرسليمان؛ ذات التنوّع القبلـيّ بالسكان أراد (تطبيق) ذلك عليّ برؤية التنوّع المشابه له في بلاده... كي أتجنّـب الوقوع بما لا تحمد عقباه... سأشكره وأشكررفيــق رحلتي الإماراتيّ عبد الله المزروعيّ؛ فهو الذي عرّفني عليه... فمنْ لا يشكرالنّاس؛ لا يشكرالله ربّ النّاس.
في المساء التقى بالتاجرين... بعدما تركاه لساعات لانشغالهما بصفقة الأخشاب:
ـــ لقد غبتما عني طويلًا؛ أيّها الصديقان؟
ـــ أنجزّنا التوقيع على الصفقة التجاريّة... وبعدها حجـزلك السّيد نجيب الله خــان

تذكرة سفرك إلى كوالالمبور!؟
ـــ هذا خبرمفرح؛ ومبارك عليكما الصفقة التجاريّة. لكن كم سعرالتذكرة لسفري؛ ياسيد نجيب الله خان؟
ـــ من أصول ضيافتنا؛ أنْ نكملها بشراء تذكرة السفـرللضيف. فهي مني هديّـة... حاول غريب دفع مبلغ التذكرة له؛ لكن نجيب الله خان أعتبرها كجــزء من الضيافة:
ـــ ياأخي لا تلحّ على الأمر... فنحن أصبحنا أصدقاء لأيام طويلة؛ وأنت غريــب في بلادي؛ والغريب في غيربلاده؛ كما تقولون في العراق هو: ضيف الله.
شكرالصوفيّ نجيب الله خان على كرمه وضيافته وحسن أخلاقه:
ـــ ومتى سيكون السفرياسيدي الكريم؟
ـــ بعد يومين إنْ شاء الله... وقد بعثت بتوصيّة لصديقي بيتــرمانيلي؛ الموظف في نقطة ميناء كروز؛ لتسهيل دخولك وإقامتك في العاصمة هونيــارا. وأرى أنْ تقضي فيها عدّة أسابيع للتعرّف على الأوضاع العامّة وطبيعة الحياة في جـزرسليمان؛ فهي بلاد جزرها كثيفة الغابات؛ لعلّ صديقي المزروعيّ سيأتيك يومًا لشـراء الأخشاب...

****

ووصل غريب باشـــا الصوفيّ إلى ميناء (نقطة) كــروزفي جزرسليمان على متـن سفينة ماليزيّة تابعة لشركة رهـــوان للشحن والنقل البحريّ... والتقى بصديق نجيب الله خان؛ بيترمانيلـــي الموظف في الميناء... والذي اهتمّ بالصوفيّ ووعده بأنْ يجـــد له مسكنًا في حيّ الميناء البحريّ على طريق كوكوم عند ريف العاصمة؛ كما أراد...
لقد أصبحت هونيارا عاصمة للجزر؛ بعـــد الحرب العالميّة الثانية؛ وهي تقع ضمن محافظة: جـوادالكانـــال؛ وأغلب سكانها من المسيحيين؛ وفيها الكنيسة الإنجيليكانيّة بحكم أنها كانت تحت التاج البريطانيّ حتى تاريخ الاستقلال؛ هذه الكنيسة تديرشؤون الكنائس في عموم منطقة ميلانيزيا ضمن أرخبيل بسمارك؛ أي: جزرسليمان وغينيا الجديدة في المحيط الهاديء. وضمن هذه المنطقة الجغرافيّة؛ ورغم قلّة عدد السكان ففيها أكثرمن مائة لغة محليّة؛ لكن الإنكليزيّة هي اللغة المعتمدة رسميًا مع لغة أخرى هي لغة بيجين. واللغات المحليّة فيها تنتمي إلى عائلــة اللغات الأسترونيزيّة؛ وهناك بقايا للغتين الفرنسيّة والألمانيّة بحكم توالي الحملات الاستعماريّة والتبشيريّةّ عليها... إلى جانب تلك الكنيسة الأمّ؛ ثمة أبرشيّـة للرّوم الكاثوليك وللكنيسة السبتيّة الأمريكيّة.
أما عدد المسلمين في جزرسليمان فلا يتجاوزيومذاك العشرة بالمائة من عدد السكان؛ ولكنهم غيرموحّدين؛ بسبب الدورغيرالسويّ لطريقة: الميرزا القاديانيّة؛ التي عبثت بالأفكاروبلبت العقيدة بمظاهرتفريقيّة منحرفة؛ لا تتفق مع مباديء الدّين الإسلاميّ.

ولم يسلم من هذه الطريقة إلا عدد من المسلمين في جزرسانتا كروزفي بحرالمرجان؛ والتي تبعد عن العاصمة هونيارا مسافة (750 كم)؛ وليس من السهل الانتقال إليها إلا عبرالبحر... وفيها المدينة المركزيّة: تيكوبيا؛ التي يسعى غريب باشا الصوفيّ السفروالاستقرارفيها... لما خطط له من قبل وكتمه في خاطره خبئًا نحوميلاد جديد.

ـــ أشكرك يامسترمانيلي على جهودك الكريمة في الاستقبال وتوفيرالسكن المطلوب القريب من منطقة الميناء... لأنّ ذلك سيسّهل عليّ السفرلاحقًا إلى جزرسانتا كروز!

ـــ وإلى أيّة جزيرة من جزرسانتا كروزتنوي السفرياسيدي؟

ـــ إلى تيكوبيا! بعد حصولي على تصريح السفروالإقامة القانونيّ.

ـــ سأساعدك؛ ولكن لماذا تيكوبيا بالذات؟

ـــ لأنها تقع في أقصى اليابسة من الكرة الأرضيّة؛ وهذا دافع عميق ومهمازداخليّ لي ورثته عن (جديّ) الرحالة المغامر: السندباد البحريّ... هل سمعت به من قبل؟

ـــ قرأت عنه في إحدى حكايات الليالي العربيّة؛ التي تسمّونها: ألف ليلة وليلة!

ـــ صدقت يامسترمانيلي؛ أنت قاريء ذكي وموسوعيّ الثقافة والمعرفة والأدب...

****

عند ذاك أدرك الفتى أنّ مهمته معرفة التفاصيل عن غريب باشا الصوفيّ قد انتهت؛ وعليه أنْ يبعث التفاصيل إلى ابنه لقمان على عنوانه بالبريد الإلكترونيّ... وسينتظر بقيّة الرّواية من يوم دخول غريب الصوفيّ إلى مدينة تيكوبيا حتى يوم وفاته؛ ليرى مسارالأحداث التي انشدّ إليها شدًّا فاق كثيرًا ما كان يتوّقعه في البدايّة؛ يوم التقى في مكة بولده لقمان غريب باشا الصوفيّ. وتفاصيل تلك الأحداث موجودة لدى لقمان...

مضى أسبوع على إرسال التفاصيل إلى الحاجّ لقمان... لكنه لم يستلم منه أيّ جواب. سينتظرلمعرفة الموقف... فالقمرمكوّن من نصفين؛ لا يكتمل من دونهما؛ ولوطال المحاق السجيف... وكلّ رواية لا تكتمل إلا بطرفيها ونصفيها كالقمرالمنير.

انشغل الفتى بشؤونه الخاصّة في المدينة... لكن خاطره ظلّ متيقظًا كالذئب؛ كأنّه يرنوإلى أبعد نقطة في الأرض والبحر؛ حيث مدينة تيكوبيا التي لم يخطربباله يومًا أنه سينشعل بها؛ وهي التي قلما قد سمع بها في الجغرافيا أورآها على خريطة العالم. ما أصغرهذا العالم؛ وصدق منْ قال إنّ العالم أصبح قرية كبيرة في عصرالحضارة.

ـــ ياترى هل اكتفى لقمان بمعرفة ما كان غائبًا عنه وعن عائلته من أخبارأبيه؛ فلم يرغب بسرد الأحداث عنه؛ منذ يوم وصوله إلى جزرسليمان حتى وفاته؟

تأفأف الفتى... وهوالذي (يخنقه) عدم الوفاء؛ لكن للغائب كما يقول المثل الشعبيّ: (عذره). فلينتظر؛ فالصبرمفتاح الفرج والجواب... ولوطال الانتظارالمكتوب.

وفي اليوم العاشر... وصلته رسالة إلكترونيّة من الحاجّ لقمان؛ يقول فيها:
ـــ عزيزي المحترم... في الوقت الذي أشكرك على تزويدي بتفاصيل الأحداث عن والدي... وهوما كنت وكانت العائلة تجهله تمامًا؛ أوعدك كما وعدتـــك في أولّ لقاء بيننا أنْ أوافيك كذلك بالتفاصيل عن والدي لتكون على بيّنة من الأمرولتكتمل الصورة المشتركة. لكنني أحتاج لبعض الوقت لترتيب السرد مستعينًا بذاكرة والدتي؛ والتي هي الأخرى تبلّغك السّلام والتحيّة؛ وتشكرك على جهودك وأتعابك في متابعة القصّة من أشخاصها... إنني أحتاج لبضعة أيام كي أبعث إليك التفاصيل بالتتابع؛ فانتظر؟
شعرالفتى بارتياح لهذه الرسالة... وكتب إلى لقمان:
ـــ تحياتي لحضرتك وللعائلة... وأودّ أنْ أخبرك أنّ تفاصيل الأحداث التي وصلتك مني هي دقيقة وصحيحة وواقعيّة مستقاة من الشخصيّات التي عرفت والدك المرحوم غريب باشا الصوفيّ؛ فكن مطمئنًا على ما ورد فيها... فهي تشكّل تاريخه الشخصيّ في عقد الستينات في العــراق؛ وبعد خروجه منه حتى وصوله إلى جــزرسليمان... منتظرًا منك تزويدي ببقيّة القصّـة حتى النهايّـة؛ لأنني حقًّا لمتشوّق مثلك لمعرفتها.

****

مضت الأيام والليالي فلم تعثرالسلطات على غريب باشا الصوفيّ... رغم أنها نشرت عيونها في كلّ مكان في بغداد وسامراء... فتمّ تعميم اسمـه على النقاط الحدوديّة كافة؛ ولكن بعد فوات الأوان... لقد وصل إلى أقصى الكرة الأرضيّة وسط المحيط الهاديء.
كان ذلك في شهرشباط من عامّ 1960... إذْ شهد الصراع السيّاسيّ في العـراق أتونًا من نيران الانتقام الأحمــرضد كلّ منْ عــارض النظام الحاكم؛ أومجرد حامت حوله الشكوك؛ أنه من أعداء النظام؛ خاصّة ممنْ كانوا في السلك العسكريّ.
لقد أخذوا النّاس بجريرة المخبرين الوشاة بتهم الظنّ؛ وإنّ الظــنّ لا يُغني من الحقّ شيئًا... فتكبكب السجناء في السجون؛ وهرب الوطنيون من البلاد إلى دول الجوار؛ وانعزل المجتمع بعضه عن بعض؛ خشيـة من الفتـن السوداء ووشايات المخبرين...
عاش النّاس في يأس من المستقبل؛ فشهدت مدن: كركوك والموصل كما بغداد عدّة جرائم قامت بها المقاومة الشعبيّة الشيوعيّة وعصاباتها الحمراء ذات السحل بالحبـال.
وزاد اليأس على يأس أنّ الدعاء إلى السّماء لا يُستجاب... وانتشرت سلوكيات الخمر والمجون والإلحاد وكسرالحواجزبين النساء والرجال بالاختلاط باسم التحررالجديـد.
أما غريب باشا الصوفيّ فقد انقطع عن متابعة أخباربلاده التي تركها من دون رجعة؛ وانشغل بالتكييف في البلاد الجديدة... حتى نال الموافقات الرسميّة في الإقامة والتنقّل المفتوح الحركة في عموم جزرسليمان؛ بمساعدة من صاحبه بيترمانيلي؛ كما وعده.

كان الصوفيّ ينتظرحلول شهر(أيار) من ذلك العامّ؛ حيث ستجري مسابقة الرقص الكبرى في مدينة تيكوبيا؛ وهي مسابقة تجري لمنْ يجد في شخصه القدرة على أداء أفضل رقصة ليتمّ اختياره حاكمًا على تلك المدينة الصغيرة في المحيط الهاديء... سواء أكان من السكان أومن المقيمين بصورة قانونيّة؛ وأنْ لا يقل عمره عن ثلاثين سنة؛ ولا يزيد على ستين عامًا... وأخرى ثانويّة؛ والشروط كافة تنبطق عليه.
لقد أراد غريب أنْ يُثبت لنفسه قبل غيره؛ أنه جديربتحقيق ميلاد جديد له في الغربة؛ مهما كانت النتيجة محدودة وصغيرة... إنما المهم عنده (المبدأ) الذي يكشف الخبء المكنون في داخله؛ كما حقق عبد الرّحمن الداخل مسعاه بإعادة الخلافة الأمويّة في الأندلس؛ بعدما سقطت في المشرق... لهذا تعرّف على طبيعة السكان في تيكوبيا؛ وقررالتنازل عن العديد من المفاهيم التي نشأ عليها في بلاده قبل الهجرة والرحيل... لأنّ البدايّات الجديدة تستحق التضحيّة؛ ما دام هناك الطموح نحوهدف استثنائيّ.
وهكذا باشربهمّة الاشتراك بالمسابقة؛ التي لا يعلم بوجودها في مكان آخرمن العالم. فهي تعود إلى تراث قبليّ أسطوريّ للقوم؛ كان معمولًا به في أرخبيل جزرميلانيزيا.

****

ـــ أخي المحترم لك التحيّة: سأبلّغك بالخطوط العريضة لنشاط والدي غريب باشا الصوفيّ؛ منذ وصوله إلى ديارنا حتى دفنه في جبل فريدة في ضواحي تيكوبيا... هي مدّة تمتد طوال خمس وأربعين سنة من النشاط وتثبيت الدور؛ فنال احترام القوم.
لقد وصل أبي إلى المدينة في شهرآذارمن عامّ 1960 واستقرّفي أحد الأحياء السكنيّة ثمّ استثمرأوقاته للتعرّف على السكان المحليين. كان يخرج يوميًا إلى السوق الكبيرة. ففي تلك السوق توجد فئات من السكان؛ فكان من السهل عليه التعامل معهم بأريحيّة خصوصًا وأنه يجيد اللغة الإنكليزيّة... هذا ساعده التعرّف على أحد الشخصيّات من كبارالتجار في المدينة... فتطوّرت بينهما العلاقات الإنسانيّة؛ فكانا يلتقيان كلّ يوم تقريبًا... مما فتح له الطريق لتثبيت مكانته في المدينة. وكان هذا التاجرمن المسلمين واسمه: سليمان تارو؛ وهومن أعيان المدينة المعروفين والمحترمين جدًّا. وهووالد أمّي: ماريا تارو؛ والتي سبق وقد ذكرت لحضرتك اسمها.
وحينما صارحه والدي عن رغبته المشاركة بمسابقة الحكم الكبرى؛ لأنه مقيم بشكل رسميّ وقانونيّ؛ شجعّه سليمان تارو؛ ووقف إلى جانبه؛ وأعلمه أنّ المطلوب منه أداء رقصة كبرى متمييزة للفوز؛ أمام منافسين خبراء ومحترفين؛ ولهم باع طويل. وشدد عليه؛ أنّ إحتفاليّة الرقص في المسابقة مقدّسة ومفتوحة؛ لأنها مرتبطة بتراث قبليّ أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة... لكن القوم متمسكون به كتقليد خالد لهم.

لقد استوعب أبي نصيحة السّيد سليمان تارو... وأخذ بها وتهيّأ ليوم المسابقة بحماس. كانت تنتاب والدي حالة من الشوق الشديد إلى وطنه العراق؛ لكنه كلما تذكّرصراع الأحزاب الدمويّ في بلاده على السلطة؛ لـزم نفسه الصبرالواعي كي ينسى الماضي وينشغل فقط بحاضره؛ بعدما قطع مسافات بعيدة للوصول إلى مدينة تيكوبيا.
لقد أدرك أنّ الانتماء إلى المكان؛ أوّل شروط النجاح على الزمان... لأنّ الانتمـاء له يحقق منه: المصداقيّة والثقة والإخلاص والمثابرة للنجاح والتطوّروالعدل في القرار. وهكذا سجّل والدي اسمه في لجنة تلك المسابقة؛ بعدما دفع رسوم الاشتراك كغيره... سيدي الكريم: وجاء يوم المسابقة المنتظر... المئات من سكان المدينة قد تجمعّوا في الساحة الدائريّة؛ قرب السوق الكبيرة... من الأعيان والعـوام؛ من الرجال والنساء؛ هي مسابقة جادة تشرف عليها لجنة من أعيان المدينة ومعهم مندوب يمثل العاصمة؛ والفائزيتوّج حاكمًا على تيكوبيا لمدّة سنتيـن... فإذا وجدوا فيه أنه صالح ومصلح لهم جددوا له المدّة... وإذا وجدوا أنه قد فشل في إدارة شؤون المدينة... اجتمعوا وقرروا اجراء مسابقة جديدة... لاختيارحاكم بديل وفق رقصة جديدة تدلّ على الفتوة والقـوّة.

****

قرأ الفتى رسالة لقمان غريب باشا الصوفيّ؛ أكثرمن مرّة... واستغرب هذا النـــوع من الاختيارلحاكم على مدينتهم؛ إذا قدّم رقصة طقوسيّة؛ تدلّ على الفتــوة والقـوّة...
ـــ تُرى كم واحد ببلادنا سيرقص حتى الصباح لـوتسنّى له مثل هذه المسابقة ليفوز بها ليتوّج حاكمًا؛ ليس على مدينة أوجزيرة بل على حيّ صغير؟
أليس هم يرقصون فعـــلًا أكثرمن رقصات قبائل جزرسليمان؟ لكنهم يرقصون على جثث ودماء ودموع. فياليتهم يرقصون مثل رقصات الفنانات في الملاهي والحانات! بدل الرقص الأحمـرالمضرّج بالدم والبارود؛ كتهارش الديكة حتى الموت... فـردد قول الشّاعر: { لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها..... ولكنّ أحلام الرجال تضيقُ }.
طفق الفتى يقلّب خاطره الذي انتابته حالة من التفكيركالعصف الذهنيّ؛ فيتصاعد فيه الحماس المكتوم؛ وهويرى المتصارعون يتهارشون على الفتات؛ وما مات سياسيّ قط في بلادنـــا العربيّة كافـة من: قلة الزاد ولا من قلة المال ولا من قلة المناصب...
لقد نكأت تجربة غريب باشا الصوفيّ في الفتى جراح: الماضي والحاضروالمستقبل؛ مما زاده شوقًا لمعرفة المآلات بعد تلك المسابقة الطقوسيّة في مدينة تيكوبيا القصيّة... واسترجع في ذهنه الوثاب؛ ما قرأه من تجارب ساخنة في تاريخنا العربيّ الإسلاميّ. وكيف كانت المناصب تباع وتشترى؛ لأنّ صاحب المنصب المحظوظ سيحقق لنفسه أضعافًا مضاعفة مما دفعه لقاء حصوله على المنصب... دون أنْ يقـدّم خدمة حقيقيّة

للنّاس في الولاية... حتى أصبح شراء المناصب ظاهـرة موروثة منذ سيطرة الدولـة العثمانيّة على بلادنا العربيّة في المشرق... بل زادت عن عهد السلطنة؛ كالسرطان: ـــ أمـن المعقـول أنّ مدينـة صغيرة في جزيرة صغيرة في أقصى الأرض؛ ووسـط المحط الهاديء؛ تعتمد مسابقة طقوسيّة؛ تقوم على تراث قبليّ وإسطوريّ؛ وتحقق لنفسها عدالة في اختيارحاكمها... ونحن الذين أنشأ أجدادنا منذ أكثـرمن خمسة آلاف سنة؛ نظام الحكم والقانون والشرائع؛ عاجزون عن تحقيق تجربة نزيهة لنا مثل تلك القبائل المنسيّة؟ فأين العيـب لنصلحه؟ وأين الخلـل لنعالجه؟ وأين العجـزلنستبدله؟ لم يستطع الفتى القرارولا الاستقرار... بل كان يذرع المكان كالفلاسفـة الرواقيين في اليونان القديمة... لعلّه يجد جوابًا للإصلاح وللعلاج؛ نحو قيامـة مجلجلة لترفـع هذا الكم من صخورالياس المثقلة على صدرالأمّة؛ حتى سادتها الغُمة؛ وركبتها الحُمى؛ وزعزعتها مشاهد اجتماعات القمة... وبكى الفتى بحرقة وهويرى الوقائــع؛ التي لم يساوِ فيه الفعل المنتج للحياة؛ فعل جزيرة صغيرة من مائــة جزيرة من جزرسليمان. فهل إلى إصلاح أحوال بلاده البعيدة من سبيل قويـم؛ يقوم على القانــون والمواطنة؟

****

في اليوم الخامس من شهرأيارمن عامّ 1960 اجتمع النّاس في الساحة الدائريّــة قرب السوق الكبيرة في المدينة... جمّ غفيرلعدد السكان الصغير؛ تتقدمهم لجنة من أربعة رجال وأربع نساء... وكان عدد المشاركين سبعة رجال؛ ممنْ سجلّــوا في المسابقة؛ وفق شروطها الخمسة وهي: أنْ يكُ المتسابــق من سكان المدينة أومن المقيمين فيها؛ بشكل قانونيّ؛ أنْ يدفع رسوم الاشتراك وهي ما يعادل مائة دولار؛ أنْ يكون عمـره بين الثلاثين والستين سنة؛ أنْ يتفـرّغ طوال مدّة السنتين للمهمة التي فــازمن أجلها... كلّ ذلك شرط أنْ يقدّم أمام الجمهورولجنة المسابقة؛ أفضـل رقصة طقوسيّة تعبيريّة؛ في مدّة نصف ساعة متواصلة الإيقاع وبحركات دالة على هيولي ورمزيّة المشهـد... تقدّم المتسابقون واحـدًا تلــوالآخر... وكانوا جميعًا من قبائل جزيرة ومدينـة تيكوبيـا. وحين أعلنت اللجنة اسم المتسابق السابع... انصت الحضور؛ لهذا المقيم الجسور... وقبل بدء أداء الحركات على إيقاع الطبول؛ أعلن أنّ اسم رقصته: المسيــح الذبيح! بذلك كسب مقدّمًا مشاعرأغلب الحضور؛ وهم من مسيحي المدينة؛ كما كسـب معهم الحضورمن بني دينه من المسلمين؛ رغم قلتهم. لقد كانت رقصته تلك هــي الرقصة التي أداها في تكيّة الشيخ محمود البرزنجيّ في السليمانيّة في العراق؛ وسمّاها رقصة الذبيح... فلم يزد أنْ جعل اسمها: المسيح الذبيح؛ وهذا من حنكته في تحقيق الفــوز على جميع المتسابقين... وأعلنت اللجنة فوزه ذاك؛ وكان التاجرسليمان تاورأكثرهم

فرحًا بفوزه المفاجيء... فلم يفزبهذا المسابقة من قبل أي مقيم غريب؛ سوى غريب باشا الصوفيّ... الذي هنئه وقال له بصوت مليء بالحبوروالمسرّة:
ـــ لقد كنت تؤدي طقوس السّماء في الأرض؛ وقد تشابهت حركاتك الدائريّة هنا مع هندّسة الساحة الدائريّة في المدينة؛ ومع حركة أمواج المحيط الهاديء الزرقاء... إنها بحقّ رقصة الرّوح... وهذا يلتقي مع رمزيّة المسابقة التي عمادها الأسطورة.
وتمّ تقليد غريب الصوفيّ قلادة ذهبيّة؛ ثمّ سلّم مفتاح وزيّ الحاكم على تلك المدينة... ولم ينتهِ الاجتماع الشعبيّ ذاك إلا بأداء الصوفيّ لقسم الولاء المطلق لخدمة الجزيرة وسكانها؛ طوال سنتين؛ وقابلة للتجدد لمنْ يثبت أنه الحاكم الصالح المصلح للجميع.
وعادت الطبول تدق بإيقاع قبلي صاخب؛ وهي تسيرأمام الحاكم الجديد إلى دارالحكم المقام على تلّة تشرف على أغلب أحياء المدينة؛ يقع قبالة جبل فريدة الأسطوريّ.
بعد انفضاض الجموع... توضأ والدي وصلّى بركعتين حمدًا وشكرًا لله على تحقيق الفوزالذي كان يحلم به من قبل... وتذكروالده ووالدته وشيوخه؛ فنزلت الدموع على خديه. لكن أدرك بسرعة أنّ الواجب المحتوم عليه أنْ يباشرمن ساعته العمل المنتج.

****

رفعت لجنة الأعيان قرارتنصيب الحاكم الجديد إلى العاصمة هونيارا؛ لتثبيته لديها... وحصلت الموافقة الرسميّة على ذلك الأمر؛ لتطابقه مع الأعراف؛ مع منحه جنسيّة جزرسليمان وفقًا لتقريرمندوب العاصمة الذي شارك أعيان المدينة عمليّة الإشراف.
إنّ أوّل قراراتخذه الحاكم الجديد غريب باشا الصوفيّ؛ أنْ اعتمد المنافسين الستة له في مجلس لإدارة شؤون المدينة... وهؤلاء الستة هم أساسًا من أعيان القبائل الكبيرة.
فحقق اجماعًا كبيرًا لصالح تثبيت حكمه الجديد؛ وتسييرشؤون الحاكميّة من دون أيّة مشاكل محتملة... ثمّ راجع الصوفيّ سجلات سكان المدينة؛ فلاحظ أنّ عدد سكانها يومذاك مكوّن من ألف ذكروأنثى من مختلف الأعمار؛ منهم (550) أنثى؛ و(450 ذكرًا). فقررالتعرّف على الذكورمن الذين بلغوا سنّ (18 سنة) فما فوق... وعددهم لا يزيد على (250 فردًا). هم عماد العاملين في المدينة في المهن: العامّة والخاصّة.
أما الإناث؛ فمنهنّ (400 سيدة متزوّجة)؛ و(150 فتاة). وكانت غالبية السكان من غيرالمتعلمين... وفي المدينة مسجد واحد وثلاث كنائس. يمثلان نسبة عدد المسلمين إلى عدد المسيحيين... لقد أحاط الصوفيّ بالخطوط العريضة لواقع مدينة تيكوبيا...
لم يقبل الحاكم الجديد إلا دعوة قد أقامها له التاجرالكبيرسليمان تاروفي قصره:
ـــ مرحبًا بحضرتك أيّها الحاكم الجديد غريب باشا الصوفيّ... قصري يتبارك بك!

ـــ أشكرك أيّها الصديق الكبيروالمخلص...لقد كان تشجيعك الكريم مهمازًا لمواجهة التحديّ؛ حتى حققت الفوزفي تلك المسابقة الطقوسيّة... وأرى أنّ دورك الأهمّ معي سيبدأ لاحقًا... وأنت جديربه ياسيد سليمان!
انتبه تارولكلام الحاكم الجديد:
ـــ بعد فوزك ماذا أستطيع أنْ أقدّم لحضرة حاكمنا الجديد؟
ـــ الكثير؛ الكثير... وهنا أودّ تذكيرك أنني أوّل حاكم مسلم لهذه المدينة؛ ولا بدّ من نجاح هذه التجربة المتميزة لنا ولصالح الجميع.
ـــ سأكون إلى جنبك داعمًا وناصحًا مخلصًا؛ قل لي ما هوالمطلوب مني؟
ـــ بعد تناول الغداء على مائدتك الكريمة سأخبرك بالمطلوب!
وهنا (قدحت) في رأس سليمان تارو؛ فكرة استثنائيّة؛ وهي السعي لتزويج ابنته: ماريا من غريب باشا الصوفيّ؛ ليضمن الولاء والوفاء والدعم المتبادل. فهولن يجد لابنته ماريا الجميلة؛ التي عادت مؤخّرًا من أستراليا؛ بعدما نالت الشهادة الجامعيّة؛ أفضل وأحسن من غريب باشا الصوفيّ... لذلك زاد اهتمام سليمان تاروالحميميّ جدًّا بضيفه عما كان؛ فهو: الحاكم وهوالمسلم وهوالشاب المتعلّم الوسيم؛ المناسب لها...

****

لم تتدخل السلطات البريطانيّة بهذا الاختيارللحاكم الجديد؛ لمدينة وجزيرة تيكوبيا... فهي سبق واتفقت مع القبائل هناك على احترام التقاليد والأعراف المحليّة مع الجميع. كما أنّ الصوفيّ لا يشكّل على الإمبراطوريّة البريطانيّة خطرًا مباشرًا أوغيرمباشر؛ مادام السكان راضون اختياره بحضورمندوب العاصمة هونيارا مع لجنة الأعيان... ولندن تعلم أنّ حاكمًا لمدينة وجزيرة صغيرة في أقصى الأرض مسؤول على شؤونها المحليّة فقط؛ فهوعندهم بمثابة رئيس بلدية؛ وليس حاكمًا سياسيًا له وزن الزعماء. فما كان من ممثل الحكومة البريطانيّ السيرجورج تروس إلا أنْ بعث بباقة ورد إلى الحاكم الجديد؛ متمنيًا له التوفيق والنجاح والتعاون مع السلطات؛ لخدمة مصالح الطرفين... والتشاورالمشترك عند وقوع أيّة مشاكل كبيرة.
كانت رسالة السيرجورج تروس بمثابة ضوء أخضرللحاكم الصوفيّ ليواصل إدارته الطموحة للمدينة من دون منغصّات... هنا رأى الصوفيّ أنْ يدعوالسيرتروس لزيارة تيكوبيا؛ وإقامة دعوة على شرفه؛ للتعارف والتشاورالمفيد.
كان الصوفيّ يبتغي إلى شيء أبعد بكثيرمما ظنّ المندوب البريطانيّ؛ فالسيرتروس لديه قصرجميل في ضواحي تيكوبيا... فأراد الصوفيّ تحويله إلى مدرسة لأهالي تلك المدينة؛ واستحضرفكرة مغرية لتحقيق ذلك؛ دونما أنْ يؤدي الأمرإلى صدام معه...

خصوصًا والقصر البريطانيّ؛ يبقى متروكًا طوال السنة؛ إلا حينما يقوم السيرتروس بزيارات متباعدة تصل أحيانًا إلى سنتين إلى تلك الجزيرة... فهو قصر عاطل عمليًا.
وبعد أسبوع وصل السيرتروس إلى تيكوبيا؛ واستقبله الحاكم غريب باشا الصوفيّ؛ بحفاوة مفاجأة له... إذْ طلب من أعضاء المجلس الستة؛ أنْ يختاروا له كلّ من قبيلته عشرة فتيان وعشرفتيات؛ وطلب ألباسهم زيًّا مشتركًا جميلًا؛ فكان الفتيان لهم اللون الأزرق والفتيات لهنّ اللون الأحمر؛ وكلّ فتى وفتاة يحملان؛ وردة بيضاء. وهذه الألوان مشتقة من ألوان العلم البريطانيّ الثلاثة وهي: الأزرق والأحمروالأبيض. فلا تزال جزرسليمان يومذاك من عامّ 1960؛ تحت حكم التاج البريطانيّ.
لقد نال هذا المشهد الاحتفائيّ؛ رضا وسعادة مندوب بريطانيا السيرجورج تروس... وشكر الحاكم الجديد على مبادرته تلك؛ والتي تستحق التقدير الشخصيّ والرسميّ...
وصحب الصوفيّ السيرتروس إلى قصر الحاكميّة؛ المقام فوق تلّة تطلّ على المدينة؛ وأقام له دعوة غداء كبرى؛ حضرها القائد العسكريّ البريطانيّ وأعيان القبائل الستّ الكبرى في الجزيرة... مع احتفاليّة موسيقيّة من تراث الجزيرة الأسطوريّ؛ أضفت المزيد من المتعة والرضا من قبل المندوب البريطانيّ؛ على الحاكم الجديد... خاصّة وكان الصوفيّ يتحدّث إليه بلغة إنكليزيّة عالية المستوى؛ قد عززت الشعوربالولاء.
إنّ إجادة لغة المسؤول؛ يقصّر المسافة لتحقيق تسهيل الكثيرمن المنجزات والطلبات.
ـــ أنا ممتن منك مستر الصوفيّ... لقد كان يومًا جميلًا لم أراه من قبل في الجزيرة.
وأخبرني الآن هل لديك طلبات لتعزيزدورك في الحكم على الجزيرة وخدمة السكان؟
ـــ ياسيدي مندوب صاحبة الجلالة؛ أرجوأنْ يكون قصر الحاكميّة في مدينة تيكوبيا قصرك الذي يستضيفك دائمًا... في المستقبل. فوجودك فيه سيمنحنا فرصة التشارك في المشاورة؛ لتطويرقدراتنا المتواضعة مع مقامك السامي؛ حتى لوكان حضورك لمرّة واحدة في السنة.
انتبه السيرجورج تروس لمغزى كلام الحاكم الجديد:
ـــ أفصح يامستر الصوفيّ؛ عما تريد قوله؟
ـــ بصراحة ياسيدي؛ المدينة بها حاجة ماسّة لمؤسسة تعليميّة؛ تجمع الدراسة في اللغة الإنكليزيّة؛ ومركزًا ثقافيًا لدراسة الفنّ والأدب البريطانيّ؛ ومسرحًا لعرض أعمال شكسبيرالمسرحيّة العظيمة؛ مثل الملك ليرويوليوس قيصرورومييووجوليت وهاملت وغيرها من الأدب البريطانيّ... إنّ النّاس هنا لا يعرفون شيئًا عن بلادكم!
لقد كان الصوفيّ يستثيرفي المندوب البريطانيّ حماسته الوطنيّة لبلاده الإمبراطوريّة.
وأعجب السيرجورج تروس بالفكرة الجريئة؛ بل وتحمّس لها بقوّة فائقة:
ـــ لكن أين ستقيم هذا الصرح الثقافيّ الفنيّ التعليميّ الكبيروالمهم يامستر الصوفيّ؟

ـــ أرى أنْ تتكرم علينا بقصرك في الجزيرة؛ فهوالمكان المناسب لهذا المشروع؛ فتكون قد خدمت حكومة صاحبة الجلالة؛ ونشرت الأدب والفنّ والتعليم بلغتك إلى القوم... وحين زيارة الجزيرة؛ فقصرالحاكميّة تحت تصرفك؛ ياصاحب السعادة.
سكت السيرقليلًا؛ مفكّرًا بهدوء؛ ثمّ ابتسم:
ـــ موافق تمامًا وسأتنازل عن قصري ليتحوّل إلى تلك المؤسسة... خدمة لمصالح بريطانيا العظمى في هذه الجزيرة الفتيّة! مع كلّ ما فيه من أثاث وأجهزة ومتاع.
وساد التصفيق من الحضورلمندوب صاحبة الجلالة على كرمه المفاجيء...
ـــ ليس ذلك فقط يامسترالصوفيّ بل وأتبرع بمبلغ ألف جنيه لتعزيزذلك النشاط...
ـــ وسأكون حريصًا على نشروتعليم الفتيان والفتيات اللغة الإنكليزيّة ياسيدي.
ـــ وهل لديك المعلمون لتحقيق ذلك الآن؟
ـــ سأعمد إلى الدراسة المختلطة من البنين والبنات؛ وأستعين برجال الكنائس هنا فلديهم العديد من أساتذة اللغة الإنكليزيّة... ولاحقًا سيأتي المزيد من المعلمين إلينا...
ثمّ طلب من أعضاء المجلس لديه تشجيع فتيان وفتيات قبائلهم على الحضورللدراسة.
ثمّ أعلن عن الحاجة إلى معلمين للغة والمعارف الاجتماعيّة والعلميّة والرياضيات...

****

أبلغ سكرتيرالحاكم غريب باشا الصوفيّ؛ سيده أنّ التاجرسليمان تاروابنته ماريا؛ يريدان مقابلته... وأذن لهما:
ـــ مرحبًا بالصديق العزيزالسّيد سليمان تارو... أهلًا وسهلًا بالآنسة ماريا؛ تفضلا للجلوس؛ إنها زيارة مباركة... وطلب لهما ضيافة كريمة:
ـــ يسعدني وابنتي أنْ نكون في قصرالحاكم الجديد؛ الذي سمعت بنجاحه الباهرمع مندوب صاحبة الجلالة... وكم قد أسعدني هذا النجاح المفاجيء والسريع لحضرتكم! وعلمت أنكم طلبتم معلمين للعمل في المؤسسة الثقافيّة والتعليميّة الجديدة؟
ـــ ياصديقي الكبيرأنت أوّل منْ وقف معي وأنارلي الطريق بكلّ إخلاص ولا يمكن لي أنْ أنسى أصحاب الفضل الأوّل عليّ... أعتبرمن هذه السّاعة أنّ الآنسة ماريا هي إحدى أعضاء المؤسسة الجديدة... فهي حاصلة على الشهادة الجامعيّة من أستراليا... وربّما هي من القلائل جدًّا التي تحمل مثل هذه الشهادة العالية في عموم جزرسليمان.
إنما الأهمّ عندي أنني محتاج إليك في مساعدتي لإنجاح مشروع إنشاء مستشفى جديدة في مدينة تيكوبيا؛ وتبرعك سيكون فاتحة خيرلتشجيع الآخرين لإنشاء هذا المشروع المهم لحياة السكان جميعًا هنا؟
ـــ لن أتردد بتقديم المساعدة؛ لديّ أرض كبيرة تصلح لإنشاء المستشفى؛ وفوقها

مبلغ كبيرمن المال.
ـــ هذا ظنّي بك ياصديقي الكريم... وياليتك تفاتح بقيّة التجارلهذا الغرض الإنسانيّ؟
ـــ سأفعل ذلك في مساء اليوم... فلدينا اجتماع في اتحاد التجار؛ وسأعلمهم بذلك...
وهنا بادرت الآنسة ماريا تارو وقالت:
ـــ ومتى ستبدأ المؤسسة الجديدة العمل ياسيدي الحاكم؟
ـــ لا تستعجلي... لأنّ الأمـرسيحتاج لبعض الترتيبات الفنـيّة؛ كي تكون المؤسسة جاهزة للعمل بنشاط وجديّة منذ البدايّة... كما وعدت مندوب صاحبة الجلالة.
ولاحظ غريب أنّ ماريا كانت تنظـرإليه بإرتياح وإعجاب لا يخفـى عنه... وهي ذات شخصيّة ساحرة وطموحة وجميلة؛ وشباب وحيويّة؛ فهي أصغرمنه بستّ سنين.
لم يؤثرذلك عليه... فهوما جاء إلى أقصى الأرض وسط المحيط الهاديء ليبحث عن زوجة. فالنساء وجودهنّ ضرورة من بعد تحقيق الإنجازالأساس؛ ليكون الاستقرار.
لكنه كان يدرك أنّ ارتباطه بامرأة من إحدى العوائل ذات المكانة سيوّفرله دعمًا غيـر تقليديّ... والجزيرة فيها ستّ قبائل؛ وعليه أنْ (يوازن) بذكـاء بين القويّ والأقوى. وسيحسبها لاحقًا بهدوء تام؛ كي لا يقع في مـأزق مقفل؛ قـد لا يخرج منه بسهولة...

****

على هامش جمع الضرائب من الفلاحين في الجزيرة؛ من قبل الموظف البريطانيّ... حدثت أعمال شغب من قبل الفلاحين وزبانية هذا الموظف... امتنع الفلاحون دفع أيّة ضرائب لهم... حاول الموظف الاستعانة بالجنود البريطانيين لفرض جمع الضرائب قسرًا وبالقوّة المفرطة...
وصل خبرهذا الشغب إلى الحاكم غريـب الصوفيّ؛ وهوأوّل تحـدّ سلبـيّ يواجهه في الشهرالأوّل من حكمه الجديد...
لم ينتظرطويلًا بل اتصّل بقائـد الجيش البريطانيّ؛ والذي سبق أنّ تعرّف عليه حين كان بمعيّة مندوب صاحبة الجلالة... أثناء زيارته للمدينة قبل أيام خلت.
ـــ الأمرخطيروقد يتحوّل إلى ثورة دمويّة... أرجوك أيّها القائـد سحب الجنود من الحقول؛ وأنا سأحاول حلّ المشكلة من دون شغب.
ـــ عصيان الأوامـرشيء لا نسكت عليه؛ يا مسترالصوفيّ... تصـرّف بمسؤوليّة الحاكم فورًا لحلّ المشكلة؟ وقريبًا سأزوك قصرالحاكميّة لمعرفة تقديرالموقف!
كان غريب متعاطفًا مع الفلاحين... فهم بسطاء يعتاشون على نتاج زراعتهم؛ وليس لهم بديل لدخولهم... وموظف الضرائـب لا يرحم بل يريد المزيد. فهويمارس الظلم.
لذلك طلب من موظف الضرائب تأجيل استحصالها؛ حتى تهدأ الأمور؛ وسيتواصـل

مع الفلاحين لاحتواء الموقف بسلام...
اجتمع غريب مع أركان لجنة الأعيان الستة لديه؛ وهم الذين يمثلون القبائل الستّ في الجزيرة... والفلاحون ينتمون إليهم؛ لدراسة الموقف العمليّ وحلّ المشكلة بسرعة.
في اليوم نفسه؛ وبشكل سريع؛ حضرقائد الجيش البريطانيّ إلى تيكوبيا بصحبة ثلاثة من مساعديه الضباط... على متن طائرة هيليكوبترعسكريّة من جزيرة فيجي.
رحب به الحاكم وأركان اللجنة السداسيّة... ودخلوا إلى قاعة الاجتماعات الرسميّة...
وقبل بدء الاجتماع؛ فرض غريب على سطوة المنطق المتشنج؛ قصّ حكاية تجمع الجدّ والهزل بلغة ظريفة... أدخلت الابتسامة على أسارير القائد. ثمّ قال:
ـــ جمع الضرائب أصعب مهنة؛ لكنها مطلوبة لديمومة حركة المؤسسات العامّة والخاصّة. إذن: المهم جمع الضرائب برضا السكان؛ ولا يهمّ منْ الذي يقوم بجمعها؟
انتبه القائد العسكريّ لكلام الحاكم (العمليّ). وقال:
ـــ ماذا تقصد أيّها الحاكم الجديد من وراء كلامك؟
ـــ الذي نعرفه أنّ الجنود للحروب؛ لا لجمع الضرائب... لذلك أقترح أمامكم أيّها القائد أنْ يتمّ استبدال الجنود البريطانيين؛ بشرطة محليّة تكون أكثر(مقبوليّة) لدى الفلاحين... وسنرى أنّ الخلاف سيختفي؛ لأنّ الشرطة هم من نفس قبائل الفلاحين!
وبذلك ستصلكم الضرائب كاملة بأمان؛ وسينعم الجميع بالسّلام؛ دون انتقاص لأحد.
ـــ القائد: هذا الأمرسوف يحتاج لموافقة مندوب صاحبة الجلالة؛ يامستر الصوفيّ!
ـــ سيدي القائد... أتريد ذبح الدجاجة؛ أم الحصول على البيض الطازج؟
ـــ فهمت مقصدك الذكي... سأوافيك بالجواب النهائيّ خلال أيام قليلة... فانتظر؟
انتهى الاجتماع بودّ على غيرما كان متوّقعًا... وغادرالقائد العسكريّ البريطانيّ على متن طائرته (الهيليكوبتر) إلى مقرّالقيادة في جزيرة فيجي القريبة عبرالبحرنسبيًا إلى جزيرة تيكوبيا الجميلة؛ ذات الريف الزراعيّ الشاسع والخصب الأراضي.
لم ينتظرغريب الجواب؛ بل سارع وأرسل الأعيان الستة إلى الفلاحين وطلب منهم التزام الهدوء لأيام؛ وسيحلّ قضيتهم من دون مشاكل مع موظف الضرائب والجنود.
لقد عزم على (تهذيب) قضيّة الضرائب بأفكارجديدة؛ لصالح الأهالي من الفلاحين وعوائلهم من خلال إعادة توزيع مبيعات المنتجات الزراعيّة داخليًا؛ لتقليل الضريبة.
عاد الأعيان الستة... وقد حققوا المراد من وراء إرسالهم.
في اليوم التالي حضرالتاجرسليمان تارو؛ وهو يحمل بشائرللحاكم:
ـــ سيدي الحاكم؛ لقد طرحت على اتحاد التجارما أبلغتموني به... ووافق الجميع على المشاركة بتقديم التبرعات الكريمة لإنشاء وتجهيزمبنى المستشفى الجديد...
ـــ هذا خبرسعيد ياسيد تارو... وأودّ أنّ أخبرك أنّ مؤسسة تيكوبيا الثقافيّة الجديدة؛

أصبحت جاهزة للعمل... وأرى أنّ الآنسة ماريا تارو؛ يمكنها استلام مسؤوليّة القسم الفنيّ في المؤسسة؛ لأنّك سبق وأعلمتني؛ أنها مهتمة جدًّا بالفنّ التشكيليّ الحديث...
ـــ هذا بالضبط ما تودّه وتريده ابنتي ماريا... أشكرك أيّها الوفي والذكي الاختيار.
ـــ أرجومنها أنْ تتبني تشجيع الفتيان والفتيات على تنمية قدراتهم الفنيّة بدورات في الفنّ والرسم التشكيليّ... كي نقيم معرضًا متميزًا؛ لعلّ منـدوب صاحبة الجلالة في الموسم القادم سيحضره... ليرى ما حلّ بقصره الذي تبرّع به؛ كمؤسسة ثقافيّة وفنيّة وتعليميّة لسكان المدينة... أنا واثق أنّ ذوق الآنسة ماريا العالـي سيجعل من المؤسسة صورة حضاريّة تستحق الفوزبأفضل الجوائز؛ ليس على مستوى جزرسليمان بل إنّ طموحي الفوزعلى مستوى دول الكومنولث... وسأعتبردورها؛ محوريًا بالنسبة لي.
ـــ ستكون ماريا عند حسن ظنّك؛ أيّها الحاكم الحكيم.
ـــ وأنا واثق من ذلك؛ أيّها التاجرالكريم.
انصرف سليمان تارو... وأدرك أنّ غريب الصوفيّ راغب بالزواج من ابنته ماريا؛ لكن يريد اختبارقدراتها الخاصّة... بل انتبه أنه أيضًا قد اختبرقدرات الأب تـــاروفي اقناع اتحاد التجارللتبرّع لصالح بناء المستشفى الجديد... إنه حاكم صاحب منجزات.

****

لم يتوّقف نشاط غريب باشا الصوفيّ. فهويسعى لتكون حاكميته لسنتين غنيّـة بالعديد من المنجزات لصالح سكان المدينة الطيبيين؛ الذين هُمشّوا طويلًا... نتيجة الاهمال. لقد قبلوه عضوًا في المدينة؛ وفتحوا له سبل الفوزفي المسابقة الطقوسيّة تلك بكرم لم يجده حتى في بلاده المغلوبة على أمرها؛ تحت قبضة العفريت الأحمر... فأضعـف الإيمان كما يقال: هوالوفاء لهم بالفعل الصحيح؛ لا بقول لا لون له؛ كهباب الريح... بلاده التي هرب منها خشية على حياته؛ بعدما قتلوا والده ووالدته غـدرًا... لأنهما قد رفضا الحكم الشيوعيّ المُلحد... فحاربوا كلّ صوت وطنيّ مؤمـن يسعى لخيرالبلاد. فها هي الفرصة جاءت بين يديه كحاكم؛ ولـوعلى جزيرة ومدينة صغيرة ليحقق تلك الصورة / الحلم التي كان ينشدها لوطنه الغارق في صراع بين إخوة أرجوانيّ العندمِ. آه أيّها الذئب الشرقيّ؛ الذي يأكل أهله؛ ليل نهار؛ ولوكان متخـمًا من لحوم الأغنام. لقد عاهد نفسه مرارًا؛ أنّ ينسى ذاكرته؛ وينتمي إلى حاضـرومستقبل هـذه الجزيرة؛ لكن أنّى له هذا النسيان؛ وذاكرته مغروسة فيه منذ آلاف السنين كديك يصـدح فيه مع غبش كل فجر؛ يوم أشرقت الشّمس على تضاريس وطنه قبل أنْ تشرق على سواها؟ وكلما تذكّرالعراق بكى... ولن ينتهي بكاؤه؛ إلا بعدما يتوضأ ويصلي لله بركعتين... فهل ثمة علاقة بين السّمـاء والعراق؟ ولماذا لا ينال الاستقرارإلا إذا صلّـى للعراق؟

العراق المحاط بحبال المشانق وجنون السلطة الحمراء وغوغاء فاقوا التتاربالزحف.
فهل سيجد في هذه البلاد القصيّة عن بلاده... مفتاح حلّ شيفرة الصراع الأحمرالعندم لينقذ البلاد من طاحونة الموت؛ التي لم تترك شيئًا إلا وطحنته حتى الهواء... وفجأة:
ـــ ألو... مسترالصوفيّ؛ مرحبًا؛ أنا قائد الجيش البريطانيّ من فيجي.
ـــ أهلًا وسهلًا بقائد جيش صاحبة الجلالة ومرحبًا... تفضّل ياسيـدي؟
ـــ أودّ إعلامك بحصول الموافقة الرسميّة على إنشاء شرطة محليّة؛ لتقوم بشؤون جمع الضرائب والأمن كافة في جزيرة ومدينة تيكوبيا؛ بدلًا من الجنود البريطانيين.
وتمّ إعلام العاصمة هونيارا بالأمر... فباشراتخاذ ما يلزم قانونيًا لتنفيذ هذا القرار...
شعرغريب بسعادة طافحة لهذا القرارالذي كان يتوّقعه؛ رغم أنه غيرمسبوق:
ـــ أشكرك جدًّا على هذا القرارالصائب... تحياتي وسلامي لسعادة مندوب صاحبة الجلالة؛ السيرجورج تروس. وسأقوم بتنفيذ الأمربأقصى سرعة.
أدرك غريب أنّ مسارالحكم يجري لصالحه... لكنه يخشى من شيئين:
الأوّل: الغرور... لأنّ غرورالحاكم يجعله لا يرى إلا نفسه في مرآة الواقع!
الثاني: الحسد... من قبل البطانة التي ترى نجاح هذا الغريب؛ فيما فشل الذين قبله؟

****

إنّ أوّل ما فعله السّيد غريب أنْ ذهب إلى حقول ومزارع الفلاحين... الذين استقبلوه بالترحيب؛ وقال لهم بصراحة لم يعهودها من قبل:
ـــ أنا معكم؛ لن يأتي بعد اليوم جنود بريطانيا لقمعكم؛ سأستبدلهم بشرطـة محليّة من أبناء القبائل أمثالكم... فتعاونوا معهم.
عاصفة من التصفيق والارتياح عمّت جموع الفلاحين...
ـــ وكي أجعل موظف الضرائب لا يسرق حقوقكم؛ لديّ مقترح؛ أريدكم أنْ تفعلوه من دون إعلان ولا ثرثرة... وهوأنْ تخصصوا نسبة عشرين بالمائة من قيمة إنتاجكم الزراعيّ لزوجاتكم؛ لأنهنّ يعملنّ معكم في الحقول والمزارع... فحين يأتي موظف الضرائب لن يأخذ منكم هذه القيمة كضرائب... فلا فرق بينكم وبين زوجاتكم؛ بـدل أنْ يذهب جهدكم إلى موظف الضرائب الأجنبيّ؛ فيأخذها إلى الخارج.
حالة من التأييد والهتاف الحارللحاكم الجديد... وأصرّالفلاحون على ضيافة الحاكـم.
ـــ هناك شيء آخرلا بدّ أنْ تفعلوه في عملكم الزراعيّ؛ وهوأنْ تنوّعوا زراعتكم... وعدم الاكتفاء بزراعة منتوج واحد... حتى لا نضطرأنْ نستورد ما تحتاجه مدينتكـم من الخارج... لا أريد للعملة أنْ تخرج من تيكوبيا؛ بل أريدها أنْ تبقـى في جيوبكـم.
وتذكّروا أنّ معي في الحكم ستة من أعيان قبائلكم... أيّ شيء تحتاجونه اتصّلـوا بهم

ليعلموني بأخباركم... سأبقى أزوركم كلّ شهر للاطمئنان عليكم.
أحد الفلاحين وقف وقال للصوفيّ:
ـــ سيدي الحاكم هذه أوّل مرّة نرى فيها الحاكم؛ يسأل عنّا ويجلس معنا ويأكل من طعامنا... بعد اليوم لن نفعل شيئًا يُسيء للمدينة؛ مادام الحاكم معنا بل أصبح منّا...
نزلت الدموع من مآقي غريب باشا الصوفيّ... وتذكّر مآل الفلاحين الهون في بلاده؛ كم وكم خدعوهم بقرارات الإصلاح الزراعيّ؛ التي ظاهرها وطنيّ وباطنها إقطاعيّ والحاكم يسرق منهم أخصب وأفضل الأراضي الزراعيّة؛ له ولزبانيته من المقرّبين.
إنّ الفلاح كالأرض إنْ لم تسقيه الصدق الملموس يجفّ ويتحول إلى طين صلد غليظ؛ فلا ينتج إلا الغبار والاحتجاج والضرر على الاقتصاد. إنّ الزراعة المنتجة هي روح الشعب والدولة. هي صمام أمان للأمن القوميّ للأمّة؛ بغض النظر عن فلسفة نظامها.
وتقدّم أحد الفلاحين نحو الحاكم مرتجف اليدين؛ وهو يحمل شُجيرة صغيرة له؛ وقال:
ـــ سيدي الحاكم المحترم... أرجو أنْ تقبل هذه الهديّة؛ فهي شُجيرة نادرة جاءتني من جزيرة فيجي... فهي في النهار تتفتح مع الشّمس؛ وفي الليل تبثّ رائحة زكيّة...
ـــ شكرًا لهديتك... لكنني لا أريدكم أنْ تعوّدوا الحكام على الهدايا فيطمعوا بالأكثر.

****

باشرت ماريا تارو مديرة للقسم الفنيّ في المؤسسة الثقافيّة الجديدة... وطفقت تضع لمساتها الحضاريّة التي اقتبستها أثناء دراستها الجامعيّة في أستراليا على ذلك القسم. كانت حريصة على التمييز في الديكور... وقد ساعدها على ذلك تصميم قصر مندوب صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا والكومنولث. إذْ أنّ القصر أنشأ على الطراز الفكتوريّ الذي يمتاز بالزخرفة والتنميق وتزيين المساحات الداخليّة بالوفرة والزخرفة الفاخرة؛ التي تعكس عظمة المجد الفكتوريّ للإمبراطوريّة؛ في القرن التاسع عشر الميلاديّ...
وأدركت ماريا الشابة بنت الرابعة والعشرين ربيعًا؛ أنّ هذه (فرصتها) التي كانت تحلم بها منذ سنين... لكنها بحاجة إلى فتيات متعلّمات وموهبات لتحقيق ما تصبو إليه من إقامة معرض يليق بالمكان وبالطموح الذي يريده الحاكم الجديد.
لقد استنفرت كلّ طاقاتها؛ بعدما شاورت والدها التاجر سليمان تارو... وقد وافقها:
ـــ اسمعيني ياماريا: إنّ ما تعزمين على تحقيقه من معرض تشكيليّ؛ ليس مجرد لوحات ملوّنة بل له هدفان: الأوّل كسب رضا الحاكم الجديد... وأرجو أنْ يكون لك الزوج... فاحرصي على ذلك الهدف بوعي وذكاء وفنّ. الثاني كسب رضا مندوب صاحبة الجلالة؛ الذي سيحضر إلى قصره ليرى هذا المعرض؛ ورضاه عنه؛ يعني رضاه على الحاكم الذي أريده زوجًا لك... سأقف معه وسأدعم طموحاته ومنجزاته.

ـــ وهل أنت واثق من كسب الحاكم ليكون صهرك ياأبي؟
ـــ دعي الأمورتسيركما خططت لها... فأنا تاجركبير؛ وأجيد الصفقات الرابحة!
ـــ وأنا موافقة على ما تريد وتقول ياأبي.
ـــ كنت أتمنى أنْ تكون معنا أمّك المرحومة... لتفرح بك!
ووجدتها ماريا فرصة مناسبة للبوح:
ـــ ولماذا لا تتزوّج ياأبي؛ وقد مضت ثلاث سنين على رحيل والدتي المرحومة؟
ـــ لا تنسي لقد كنت في دراستك الجامعيّة... وتوفّيت والدتك؛ ولم أرد إدخال امرأة أخرى إلى حياتي قبل تخرّجك... والآن أنتظرزواجك حتى أبحث عن زوجة ثانيّة.
ـــ وهل في خاطرك امرأة معينة كزوجة؟
ـــ لا أخفي عنك... وقع اختياري على السّيدة خاتون سوجافاري؛ ابنة وزيرالتجارة السابق؛ فهي سيدة مطلقة وتبلغ الخامسة والثلاثين من العمر؛ أي أصغرمني بخمسة عشرة سنة؛ وليس لديها أبناء. ولي علاقة طيّبة بوالدها؛ فهويعرفني جيدًا.
ـــ أتمنى لك التوفيق والسعادة... وأراه اختيارًا مناسبًا؛ فهي سيدة جميلة من عائلة كريمة؛ وحاصلة على شهادة جامعيّة من مملكة ماليزيا؛ في إدارة الأعمال.

****

اجتمع الحاكم غريب باشا الصوفيّ مع لجنة الأعيان الستة... لتدارس شؤون المدينة:
ـــ السادة أعضاء لجنة الأعيان... اجتماعنا اليوم لغرضين أساسيين:
الأوّل: تشكيل قوّة من الشرطة المحليّة؛ مكوّنة من ستين رجلًا... تكون أعمارهم بين سنّ الحاديةّ والعشرين سنة؛ والخامسة والعشرين... وعددهم سيكون (60) شرطيًا... فمن كلّ قبيلة يتمّ اختيارعشرة رجال... مع ملاحظة السلامة: الذهنيّة والبدنيّة فيهم.
أحد أعضاء اللجنة:
ـــ ومن أين لنا بالأسلحة المناسبة للستين شرطيًا؟
ـــ لا عليك ياصاحب المقام... سيزوّدنا قائد الجيش البريطانيّ بالأسلحة المطلوبة؛ وكذلك بالرواتب الشهريّة لكلّ واحد منهم... فنحن نعمل وفق القانون الأساس.
لذلك غدًا توزّعوا على قبائلكم الستّ في الجزيرة ليختاركلّ واحد منكم عشرة رجال. أريد أسماءهم وأعمارهم مكتوبة في قائمة؛ كلّ حسب قبيلته... لا تختاروا الرجال لايّ اعتبارغيراعتبارالخدمة العامّة لصالح سكان الجزيرة... لأنّ التأسيس الأوّل هذا سيبنى عليه ما بعده مستقبلًا؛ فإنْ لم يكن صحيحًا؛ سيكون البناء غيرسليم.
أما الغرض الثاني لاجتماعنا... فإنني سأقوم بزيارة لكنائس المدينة الثلاث؛ وسألتقي بمقام السادة رجال الكنيسة الأفاضل... للتعاون في مجال: التربية والتعليم والصحة.

أحد أعضاء اللجنة:
ـــ وماذا لديهم في الكنائس ياسيدي الحاكم ليقدموه لنا؟
ـــ لديهم الكثير... ولن يبخلوا عن تقديم المساعدة للسكان؛ فشعارهم خدمة النّاس؛ أنا واثق من كرمهم المبارك... حينما تريد البناء؛ عليك التعاون مع الجميع بصدق. لا تخشوا من الإقدام؛ ما دام الهدف الخدمة الصالحة العامّة للسكان. نريد للجميع أنْ يشعروا حقًّا أنّ خدمتهم لمدينتهم؛ خدمة لهم ولعوائلهم؛ وحينما يجدون مصداقيّة منّا ستراهم يتسابقون للعطاء. الحاكم الصالح مع البطانة الصالحة؛ مفتاح لكلّ الأقفال الصدأة بفعل الفساد السابق... علينا أنْ نعمل بإخلاص ليل نهار؛ والثمارستأتي تباعًا... حتى مندوب صاحبة الجلالة وقائد الجيش البريطانيّ؛ حينما يلمسان أننا نعمل بجد؛ سيبادران إلى تقديم المساعدة. ولا تنسوا أنْ لدينا الذّهب؛ الذي سيعزز من ميزانيّة المدينة؛ وأسعى لمعالجة الضرائب لاحقًا... هل هناك سؤال أوإيضاح؟
أحد أعضاء اللجنة:
ـــ شوارع المدينة بحاجة إلى النظافة ياسيدي الحاكم؟
ـــ أشكرك على ملاحظتك... سنبدأ قريبًا بحملات جماعيّة لتنظيف المدينة وتزينها.

****

في ضحى اليوم التالي فاجأ الحاكم ماريا تاروو هويزورقسمها الفنيّ في تلك المؤسسة الثقافيّة الفنيّة التعليميّة... كانت ماريا قد أعادت ترتيب القاعة الفنيّة؛ واختارت معها أربع فتيات لهنّ ميولًا فنيّة في الرسم والديكور؛ قامت بتوزيعهنّ على أداء المهام... بدت القاعة كخلية نحل تعمل بصمت حينما دخل الحاكم عليهنّ مبتسمًا مع سكرتيره:
ـــ صباح الخيرياسيدات المجتمع الجديد. هكذا هوالعمل الصحيح؛ الإنجازبصمت ينطق من دون لسان ثرثار...
ـــ صباح النّورسيدي الحاكم؛ شرّفتنا بزيارتك البهيّة؟
ـــ أنا مطمئن على دورك في صناعة نشاط فنيّ جديد ومتمييزللمدينة... وسعيد جدًّا لاهتمامكم بالديكور؛ المتناسب مع الطرازالفكتوريّ لهذا المبنى. رغم أنكنّ لازلتنّ في بدايّة المشوار؛ إلا أنّ الصورة باديــة من الآن؛ جمال وكمال وجلال. لديّ فقط ملاحظة واحدة... لا تنسي وضع صورة صاحبة الجلالة الملكة في صدرهذه القاعة. كان الصوفيّ يدرك أنّ إظهارالولاء للحاكم الحقيقيّ على تلك الجزيرة؛ وهي بريطانيا يومذاك؛ مفتاح النجاح والرضا لحاكميته؛ وهوغريب الغريب في أقصى البحار... إنه ينتظرزيارة مندوب صاحبة الجلالة للمؤسسة التي تنازل لها عن قصره الفخم هذا لتحقيق مكسب أساس... سيفاجأ به المندوب بأدب جمّ؛ وأجواء إيجابيّة؛ بعدما عرف

مداخل ودواخل (أبوناجي) ؛ كما كان العراقيون يسمّون كناية الإنكليزفي بلادهم... لذلك المظاهرلا تعني له شيئًا؛ مادامت تحقق له كحاكم منجزات عمليّة لصالح سكان المدينة... فالإمارة أمانة ولوعلى امرأة واحدة؛ فكيف إذا كانت على ألف من النّاس؟
ـــ سيدي الحاكم؛ سأضع الصورة في أعلى صدرالقاعة؛ ومحاطة بعلم بريطانيا...
ـــ متوافق معك ياآنسة ماريا... وقريبًا سنصرف لك وللفتيات رواتبكنّ. فواصلنّ العمل الدؤوب كخلية النحل؛ كما رأيته حين وصولي إلى القاعة فجأة.
ولأوّل مرّة؛ ينبض قلب الحاكم الشاب بمشاعروديّة خاصّة نحوالآنسة ماريا تارو...
ـــ هل لمست مني ماريا إحساس المودّة نحوها؟ سأنتظرأنْ تنجزمشروعها الفنيّ قبل أنْ تنشغل بالمشاعروتنسى المشروع وسط هيولي التعلّق بالحبّ وأحلام الفتيات.
ولكن غريبًا مهما فعل؛ فإنّ المشاعرالصادقة الخاصّة من رجل إلى امرأة؛ لا تخفى؛ ولوأحاط نفسه بجيش من الحرس ستنفذ المشاعروتصيب الكبد والقلب والرّوح بسهم.
أحسّت ماريا بدفء الكلمات وصدق المعاني والإشارات الدفينة في نظرات الحاكم...
ـــ صدق والدي... هذا الحاكم يبحث عن الإنسان صاحب المنجزات لا عن صاحب القيل والقال؛ الفارغ من العمل؛ ويحلم بأكل العسل... غدًا سأزيين القاعة بروحي!؟

****

دقت أجراس الكنيسة الإنجليكانيّة الكبرى في المدينة؛ ترحيبًا بزيارة الحاكم إليها... واستقبله الراهب ديفيد سوناك؛ وهومن أصل هنديّ... وبدأ الاستقبال بمجموعة من الأطفال بصفين؛ عن اليمين والشمال؛ وهم يحملون الأزهارالملوّنة ويلوّحون بها للحاكم الزائر... وشكرغريب الراهب على حُسن الاستقبال؛ ثمّ عقدا لقاءً منفردًا؛ استمرلسّاعة... واستجاب الراهب الكنسيّ لما عرضه الحاكم الجديد:
ـــ سيدي الحاكم: ستقوم الكنيسة بتقديم مالديها لدعم مسعاكم لخدمة مدينتنا الطيّبة؛ وسأنتدب ثلاثة معلمين للتدريس في مدرسة قصرالمندوب في اختصاص الرياضيات والجغرافيا واللغة الإنكليزيّة. كما سنقدّم دعمنا الماليّ لشراء مقاعد دراسيّة للمدرسة. مع تشجيعنا للأهالي لارسال أولادهم للتعلّم.
شكرالحاكم الراهب على تعاونه الكبير... ثمّ بعدها انتقل إلى أبرشيّة الرّوم الكاثوليك؛ واستقبل بحفاوة لا تقلّ عن الكنيسة الأولى... وخرج بنتيجة مشجعّة؛ بأنْ تقدّم هذه الأبريشيّة لوحات (سبورات) الكتابة لجميع صفوف المدرسة؛ مع عدّة صناديق من الطباشيرالأبيض والملوّن للكتابة... ثمّ انتقل إلى الكنيسة السبتيّة الأمريكيّة؛ التي كان رهبانها بانتظارزيارته... ثمّ اجتمع بالرهبان؛ وحثّهم على التعاون من أجل هذه المدينة التي تحتاج إلى النهوض الثقافيّ... والاقتداء بمندوب صاحبة الجلالة؛ السير

جورج تروس الذي تبرّع بقصرفكتوريّ فخم؛ ليكون المؤسسة الثقافيّة والتعليميّة في المدينة... فكان التجاوب كبيرًا؛ إذْ قدّموا مبلغًا ماليًا سخيًا؛ لتطوّيرمسرح المؤسسة.
كان غريب باشا الصوفيّ يواصل نشاطه الكبير... ولا يدع فرصة مثمرة إلا وسعى إليها... من دون طمع. لأنّ الحاكم إذا وضع الطمع في نشاطه؛ جرّذلك إلى خراب: النفس والبطانة والنّاس... وهوغيرمستعدّ لذلك؛ فتبوء طموحاته بالفشل والخذلان.
ثمّ أقامت الكنيسة السبتيّة للحاكم دعوة غداء كريمة... وحرص على حضورها ليخلق التفاعل الذي كان منقطعًا بين المسلمين والمسيحيين في المدينة... وليبعد عنهم فكرة الانحيازوالتحسس الدينيّ مع أوضد؛ فهوحاكم لجميع المواطنين؛ وفق القانون العامّ.
وتمت مفاجأة الرهبان الكبارالثلاثة؛ بأنْ تمّ اختيارهم من قبل الحاكم؛ كأعضاء في لجنة أعيان المدينة؛ إلى جانب أعضاء لجنة الأعيان الستة للقبائل... وهوما لم يكُ موجودًا من قبل في هذه المدينة؛ من قبل الحكام السابقين.
إنّ رهبان الكنائس الثلاثة؛ قد عقدوا اجتماعًا خاصًّا بهم بعد انتهاء (جولة) الحاكم؛ وأشادوا به وبروحه المنفتحة؛ واتفقوا على استمرارالتعاون معه في لجنة الأعيان... ونشروا بين رعاياهم؛ وجوب التعاون التام؛ مع الحاكم الجديد في سياسته البناءة.
كلّ ذلك كانت تراقبه (عيون) صاحبة الجلالة... لتؤكّد على حياديته وموضوعيته من دون الولاء لأحد إلا للعمل المنتج لصالح سكان المدينة... وحينما أطّلع المندوب البريطانيّ على التقريرالسريّ بشأن الحاكم الصوفيّ؛ أزداد له احترامًا وتقديرًا وثقة.
والصوفيّ كان بدوره يعلم ما يدورحوله بصمت... فهوأوّل حاكم مسلم على المدينة!
لقد تجاوزالكثيرمن العقبات الكأداء في فترة زمنيّة قياسيّة؛ فنال ثقة أصحاب القرار.
في وسط هذا النشاط... أدرك غريب أنّ به حاجة لعين موثوقة في المدينة تنقل إليه الأخبارسرًّا أوّلًا بأوّل... وبعد تفكيرعميق:
ـــ ليس هناك أفضل وأوثق عندي من التاجرسليمان تارو؛ فهوأوّل صديق لي في هذه الجزيرة... تاجرمطّلع على أحوال النّاس والسوق والتجارة؛ وله علاقات ماليّة وشخصيّة عديدة مع أعيان المدينة؛ وكذلك في العاصمة هونيارا؛ وليس حوله أيّة شكوك سلبيّة أوأخلاقيّة... وأنا أحتاجه لأكثرمن مهمة أخرى مكمّلة؛ فليكن ضابط المخابرات الخاصّ بالحاكم؛ خصوصًا وله نزعة أنْ يكون مسؤولًا حكوميًا متميزًا!
لذا وجد فيّ ما في نفسه من طموح مكنون عجزعن تحقيقه؛ رغم ثروته الكبيرة...
لقد بلغ الخمسين من العمر؛ وفي صحة جيدة؛ يجيد عدّة لغات ولديه فطنة التجار!؟
لكن هذه المهمة الخطيرة ستحتاج إلى رباط وثيق لا ينفصم من العلاقة والثقة العالية.
فهي سيف بذي حدين؛ ونجاحها سيحميني من الكثيرمن المشاكل التي لا أريد الوقوع فيها مع أحد هنا في الجزيرة أومع الإنكليزأومع السلطة في العاصمة هونيارا البعيدة.

قلّب غريب الأمرمن جهاته الثمانيّة كي لا يدع ثغرة يندم منها وعليها في لاحق الأيام. ثمّ صاح في خاطره الصامت (يوريكا؛ يوريكا). أي: وجدتها؛ وجدتها؛ كما قالها من قبل أرخميدس... إنها ابنته الجميلة والراقية ماريـا تارو؛ المفتاح إلى فتح الكنز. كانت ماريا قد أخبرت والدها بزيارة الحاكم إلى القسم الفنيّ في المؤسسة الثقافيّة مـن القصرالفكتوريّ؛ وأنه أعجب بنشاطها وأبـدى بعض الملاحظات لإنجاح مشروعها. فردّ الأب وقتها على ابنته الوحيدة:

ـــ من المفيد ياماريا أنْ تبقين قريبة من السّيد غريـب؛ لأنّ القُرب يخلق الحـبّ...

وضحك الأب؛ وضحكت الفتاة من القلب:

ـــ ياأبي أنا واثقة من كلامك الحكيم؛ لكن الزواج هونصيب؛ قد يفشل وقد يُصيب.

ـــ لست بأبيك إنْ لم يأتِ إليك الحاكم بنفسه ليطلب يدكِ مني للزواج!؟

ـــ وأنا جاهزة؛ متى ما يأتي أهلًا وسهلًا به. سأمارس عملي وأتظاهر بالامبـالاة!

ـــ هذا هوالموقف الصحيح ياماريا تارو. أجمل بنات تيكوبيا وأكثرهنّ ثقافة وعلـمًا.

فجأة يُطرق الباب... يفتحه خادم قصرآل تارو... لقد وجد بوجهه إمام مسجد المدينة.

****

خرجت إحدى السّيدات القبليّات مشيًا على الأقدام من الريف إلى المدينة لشراء بعض مستلزمات البيت لعائلتها... وفي منتصـف المسافة صادفت دوريّة لجنـود بريطانيين اعترضوها؛ ولما لم يجدوا أحدًا معها اصطحبوها بالقوّة إلى داخل الغابـة المجاورة؛ وهناك اغتصبوها... كانوا عشرة جنود من الجنسيّة: البريطانيّة والأستراليّة.

لقد مزّقوا ثيابها واعتدوا عليها بطريقة وحشيّة... وأخيـرًا استطاعت الافلات منهم؛ وهربت مسرعة إلى زعيم قبيلتها (ماراهاري) وهي أكبرالقبائل الستّ في الجزيرة.

وانفجـرالوضع القبليّ بشدّة ضد الجنود البريطانيين والأستراليين؛ فهجم رجال من تلك القبيلة على مكمن الجنود واقتادوهم أسرى إلى مضارب القبيلة؛ بعدما تمّ تقييدهم بالحبال... ووصل الخبرإلى الحاكم غريب باشا الصوفيّ؛ واعتبرهذه القضيّة مُراده:

ـــ الآن سأبدأ الحوارالصامت معكم؛ ياصاحبة الجلالة...

اجتمع فورًا بأعيان اللجنة الستة؛ وطلـب منهم معاونته لحلّ المشكلة؛ لقد اتصّـل به قائد الجيش البريطانيّ؛ بعدما علم بما حدث... وخشية على أرواح جنـوده؛ أصيب بالفزع... لأنّ بعض قبائل جزرسليمان لديهم نزعة قديمة بأكل لحوم البشر... خاصّة من الجنس الأشقروالأبيض. صحيح هذه النزعة قد توّقفت؛ لكنها في مثل هكذا حـال وموقف؛ ربّما تتجدد؛ لأنّ الرّوح القبليّة تعتبرأكل الخصم مفخرة وشجاعة ورجولة!

وقبل انتهاء الاجتماع اتصّل به أيضًا مندوب صاحبة الجلالة؛ وحثّـه على التصرف

بسرعة؛ وقبل فوات الأوان؛ لأنّ زعيم القبيلة (ماراهاري) رفض إعادة الجنـود... وطالب بقتلهم أودفع تعويضات كبيرة للقبيلة؛ وهوزعيم قـويّ؛ وله أتباع طقوسيين. فكروقدّرالصوفيّ... فهذا أوان العمل الثقيل... ورأى بشجاعة أنْ يصطحب عضـو لجنة الأعيان من تلك القبيلة؛ لمقابلة زعيمها... لكن قبل ذلك أراد معرفة المُغريـات الشخصيّة لهذا الزعيم... فاتصّل بالتاجرسليمان تـارو؛ وسأله؛ والذي أجابه بدوره:

ـــ حضرة الحاكم المحترم؛ هذا الزعيم يبلغ الستين من العمر؛ وهورجل شجاع؛ وفارس؛ وكلامه يحترمه كلّ زعماء القبائل الآخرين... لقد سبـق لجنـود بريطانيين سكارى أنْ اعتـدوا على مزرعته وعاثوا فيها الفساد... ولم يسكت إلا بعدما دفعـوا له التعويض... لذلك هذه المرّة سيكون عنيدًا معهم.

ـــ قلت لي إنه فارس؟

ـــ نعم ياسيدي الحاكم؛ إنه فارس يُجيد ركوب الخيل بل يعشقها أكثـرمن زوجته!

وضحك الحاكم لما سمعه...

ـــ إذن: تعال ومعك حصانك الأبقع الذي في مزرعتك؛ وسأدفع لك ثمنه لاحقًا...

ـــ هو لك سيدي الحاكم هديّة؛ ومن دون ثمن... مادام الأمرفيه حلّ لمشكلة كبيرة.

ـــ بارك الله فيك ياصديقي العزيـز... وبعدها سنلتقي قريبًا؛ في قصرك الجميل.

ـــ لن أرضى هذه المرّة إلا على دعـوة عشاء في قصري؛ تليـق بمقامك الكريـم؟

ـــ إنْ شاء الله... لكن من بعد الانتهاء من هذه المشكلة مع الزعيـم (ماراهاري)؛

فصاحبة الجلالة تضغط على مندوبها وقائد جيشها لأطلاق سـراح الجنـود بسرعة... والجميع يضغط عليّ؛ وأنا أضغط عليك... لكن بمحبّة وصداقة...

ضحكة مشتركة بودّ...

ـــ لا ضغط عليّ ياسيدي؛ بل أنا أساعدك بإخلاص وسعة صدر.

ـــ أعلم بإخلاصك وحرصك... ولنا كـلام خـاصّ في أقرب الآجـال؛ ياصاحبي؟

ـــ سأنتظرذلك بشوق شديد.

ـــ تحياتي للآنسة ماريا... إنها فنانة مبدعـة؛ وقد أعجبني نشاطها حينما زرتها في المؤسسة الثقافيّة والفنيّة...

ـــ وهي أيضًا تبلّغك السّلام والتحيّة... وتنتظرمعي زيارتك لنا.

ـــ متى تأمرالمجيء بالحصان الأبقع؟

ـــ غدًا صباحًا... كي أرسله مقدّمـة هديّـة إلى الزعيم (ماراهاري) قبل اللقاء به.

وفي صباح اليوم التالي؛ بعث الحاكم الحصان الأبقع مع عضولجنة الأعيـان من تلك القبيلة هديّـة إلى زعيمها عاشق الخيول. وأخبره أنّ الحاكم سيزوره عصرذلك اليوم.

لم يتوّقف قائد الجيش البريطانيّ من التواصل المستمرّمع الحاكم غريب باشا الصوفيّ لتدارك الأمربسرعة... لقد أوقعه غريب السكمانيّ بفخ صيّاد قنّاص ماهرالتصويب.
ـــ اطمئن ياسيادة القائد؛ أبذل من الجهد الكثير؛ وعصراليوم سأزورزعيم القبيلة. المطلوب منكم أنْ تبعثوا لي بخمسة آلاف جنيه لتسوية القضيّة.
ـــ سأبعث لك بالمبلغ فورًا ياسيادة الحاكم!
وقال الصوفيّ مع نفسه... هذه فرصة لإثبات المزيد من الولاء؛ وفرصـــة للحصول على مبلغ لدعم بناء المستشفى لسكان المدينة. وسيتمّ منح زعيم القبيلة مبلغ خمسمائة جنيه؛ وللمرأة مثلها تعويضًا اعتباريًا. فالخمسمائة جنيه إسترلينيّ في تلك الفترة مبلغ كبيرفي جزرسليمان قياسًا لبساطة الحياة فيها؛ مع قلّة الأسعاروالرواتب والأجور... والحقيقة أنّ الصوفيّ قد وجد في مبلغ الخمسة آلاف جنيه إسترلينيّ تعويضًا عن مبدأ العدوان على سكان الجزيرة عمومًا؛ وليس فقط على امرأة أرملة بعينها من سكانها.
استلم الزعيم (ماراهاري) الحصان الأبقع؛ هديّة من الحاكم؛ وأبدى ارتياحه الكبير:
ـــ أبلغ الحاكم أنني بانتظاره ليكون ضيفي عصرهذا اليوم؛ ياعضولجنة الأعيان؟
ـــ يازعيمي تعاون معه فهوحاكم عادل وكريم... ويريد اللقاء بك احترامًا لمقامك.

****

ـــ لولا أنه عالم أنني أريده أنْ يتزوّج من ابنتي لما تحدّث إلي بهذه اللغة الحميميّة. حينما يتحدّث إليّ أراه كالسّاحرالذي لا أستطيع الابتعاد عنه؛ أورفض طلبه. فكيف علم بوجود الحصان الأبقع في مزرعتي ياتُرى؟
وفجأة ردت عليه ماريا:
ـــ لا تذهب بعيدًا ياأبي... فربّما سمعها مني حين زارني في المؤسسة؛ سألني عنك وأخبرته عفويًا أنك في المزرعة للاهتمام بحصانك الأبقع الأصيل...
ـــ أشكرك على حلّ هذا اللغز... فأنا تاجـــرويقلقني أنْ يكشف الآخرخصوصياتي ولا أعرف كيف اكتشفها ليكشفها... لم تخبرينِ بذلك يا آنسة ماريا؟
ـــ والله نسيت هذا الكلام وقتها؛ والآن رأيتك تحدّث نفسك به؛ فتذكرته!
ـــ إنه حاكم شاب جسوروذكي؛ ويستطيع إصابة الهـدف كقنّاص من دون نيشان!
ـــ لولا أنه ذكي حقًّا لما صارحاكمًا على جزيرتنا ومدينتنا وهوغريب عن الديار.
ـــ أسمع إعجابًا به ياماريا الغالية؟
ـــ هذه هي الحقيقة ياوالدي... وقد أحسنت أنـــك صاحبته بإخلاص منذ البدايّة...
ـــ نعم أعترف أنني أحببته شخصه وأخلصت له... وأريد تقديـم خدماتي أيضًا له.
ـــ العجيب ياماريا أنه لا يطمع بشيء لنفسه؟!

ـــ لقد فارق وطنه وترك كلّ شيء هنالك... فبماذا يطمع يأبي؟ الطمع يقتل في الرجل الرجولة؛ ويحبط طموحه نحوالمستقبل... ألم تقل لي يومًا؛ إنّ المال بوصلة لمعرفة اتجاه الرجال؛ نحوقبلة الحياة؟
ـــ فخوربك ياوحيدتي الغالية... وكلامك مليء بالحكمة؛ ياصغيرتي الفنّانة!
ـــ وما هي أخبارالسّيدة خاتون سوجافاري؟
ـــ ولماذا تذكرينها في وسط حديثنا عن غريب باشا الصوفيّ؟
ـــ لن أكون سعيدة؛ ولوتزوّجت الحاكم؛ إلا إذا اطمئن قلبي على زواجك ممنْ تحب وتريد... فالوحدة للرجل سجن مفتوح؛ لكن لا يمكنك الهروب من قفصه...
ـــ وللمرأة هل الوحدة سجن كذلك؟
ضحكت ماريا بمحبّة مع والدها وقالت له بعمق:
ـــ الوحدة للمرأة السجّان الذي يفتح لك باب السجن؛ لكن لا تستطيع الخروج منه!
دلف الأب إلى غرفة مكتبته العامرة بالكتب... فالمكتبة بالنسبة إليه كمحراب القنوت؛ يأخذه إلى إحساس التصوّف الروّحي على الطريقة الهنديّة؛ وقد سحب له كتابًا من الرفّ ليقرأ فيه؛ عنوان غلافه: (رجل أزرق في الأرض؛ رجل أخضرفي السّماء).

****

استقبل الزعيم القبليّ (ماراهاري) الحاكم بحفاوة... وقد أحاط به ثلّة من رجال وهم يرقصون بطريقة الدراويش؛ ويحملون رماحهم المزينة والملوّنة بالريش... ذكّرت الحاكم برقصة الصوفيّة... ومنها رقصته (المسيح الذبيح) التي فازبها على منافسيه قبل أشهرقد مضت؛ ليتوّج حاكمًا على المدينة بتفوّق؛ مع رضا وإجماع من لجنة الأعيان وممثل عن حكومة العاصمة يومذاك... وقال في خاطره:
ـــ الآن سأكررالرقص الطقوسيّ مع رجال القبيلة...
استأذن من الزعيم؛ وأخذ رمحًا مزينًا بالريش؛ وطفق بالرقص معهم؛ كأنّه منهم... كانت هذه المبادرة من الحاكم ذات تأثيرساحرعلى زعيم القبيلة؛ فمن دلالاتها أنّ الضيف يحترم تقاليد تلك القبيلة... هذه المعلومة حصل عليها من عضو لجنة الأعيان الستة؛ ممثل تلك القبيلة معه في قصرالحاكم...
وهكذا كسب غريب ثقة الزعيم ورجاله... ثمّ تحدّث معه بشأن اغتصاب تلك السّيدة!
فردّ عليه الزعيم أنه موافق على ما سيقرره الحاكم بشأن القضيّة:
ابتسم غريب للزعيم؛ وطلب منه الانفراد لوحدهما للحديث؛ وهمس بأذنه:
ـــ سأدع الجنود العشرة عندكم؛ وتحت الحراسة ليومين؛ وليبقى الأمربيننا فقط؛ حتى أرسل لك منْ يُعيدهم. وتظاهرأمام الإنكليزأنك متشدد ضد الجنود. هل فهمتني؟

وهذه خمسمائة جنيه إسترليني لك؛ وخمسمائة جنيه أخرى للسّيدة المُعتدى عليها... ولنعتبر الأمر منتهيًا! هل أعجبك الحصان الأبقع ياسيد ماراهاري ؟
ـــ أعجبني كثيرًا... أشكرك عليه؛ ومن اليوم نحن صديقان ياسيدي. وأيّ شيء تحتاج إليه سأكون قريبًا منك في الليل وفي النهار. وقضيّة المرأة انتهت تكريمًا لك.
نهض الحاكم ثمّ سلّم على الزعيم؛ الذي أهداه قبعة من ريش الطاووس؛ تعبيرًا عن الصداقة الجديدة... فوضعها على رأسه منتشيًا وعاد إلى قصره... ليجد بانتظاره ثمة التاجرسليمان تارو... رحب به وأدخله معه:
ـــ لقد جئت بالوقت المناسب ياأبا ماريا.
ـــ خيرإنْ شاء الله ياسيدي؟
ـــ أوّلًا أشكرك على كرمك أنْ بعثت بحصانك الأبقع... لنحلّ به مشكلة كانت جدًّا خطيرة... والآن نحن لوحدنا ياصاحبي العزيز... لقد رأيت أنْ أختارك من دون علم لأحد سواي؛ أنْ تكون الرجل السريّ لقصرالحاكم؛ بما لك من علاقات عميقة؛ كما لك مكانة مرموقة بين النّاس... فتكون عين وأذن الحاكم ليل نهار؛ أموافق؟
ـــ يشرفني ذلك... هل هناك رجال آخرون يعملون معي؟
ـــ قلت لك لا يعرف ولا يعلم بهذا الأمرسواي. فلن يكون معك أيّ مساعد الآن... أنت لوحدك فقط! أموافق ياشهبندرالتجار؟
ـــ موافق ياسيدي الحاكم.
ـــ أريد أنْ أعلم بكلّ شيء يجري في المدينة؛ التجارأشطرالنّاس بمعرفة الأخبار والمعلومات... ركّزعلى السوق ففيها أسراروحركة المدينة... ونريد تنشيط تجارة الأخشاب فالجزيرة مليئة بالغابات... وهناك ياأبا ماريا أمرآخر؛ أودّ مفاتحتك به؟!
ـــ تفضّل ياسيدي؟
ـــ يشرفني طلب يد الآنسة ماريا؛ لتكون زوجة لي على كتاب الله وسُنة رسوله.
بغبطة لا تخفى على الأب:
ـــ يشرفني هذا الطلب.
ـــ ألا تسأل ماريا أوّلًا؟
ـــ وهل سنجد أشرف وأكرم من غريب باشا الصوفيّ صهرًا لنا ياسيدي؛ لنقرأ الفاتحة الآن؟
ـــ لن أقبل بذلك قبل أنْ تُخبرالآنسة ماريا؛ وتوافق عليّ؛ ثمّ نعقد القرآن بحضور إمام المسجد.
ـــ بالمناسبة ياسيدي؛ إمام المسجد حضرأوّل أمس إلى قصري... وهو يعتب أنك لم تزره؛ كما زرت الرهبان في الكنائس الثلاث.

ـــ هومحقّ لكن لم أغفل عن زيارته؛ إنما لم أرد بيـــان أنني منحـازللمسلمين أكثر من المسيحيين؛ وهم الأكثريّة في المدينة... تكفّل به وأخبره أنّ الحاكم سيجد مناسبة لزيارتك إسوة بغيرك؛ لكن ليس على أساس أنني مسلم مثله بل لأنني الحاكم العـامّ... لكن لماذا اختارك أنت ليوصل عتبه إلينا؟

ـــ هذا أصبح كالتقليـد... يزورني باستمراروعند كلّ مناسبة أومشكلة؛ هووالكثير من المسلمين في المدينة؛ لا لسبب آخرخاصّ.

ـــ لهذا اخترتك الرجل السريّ... ولكي لا تنكشف هذه السريّـة؛ سأكون صهـرك ونلتقي؛ حينها لن يشكّ أحد بعملك في جمع الأخباروالمعلومات الخاصّة للحاكم.

ـــ اطمئن ياسيدي؛ سأكون حريصًا في كلّ شيء... وشرف لي أنْ أخدمك بصدق. والآن أستأذنك بالذهاب؛ لتأخذ راحتك... وسأخبرماريا بطلبك الكريم؟

ـــ تحياتي للآنسة ماريا... وسألبي شروط خطبتها كاملة؛ بعد موافقتها عليّ طبعًا.

ـــ الحمد لله أنْ جعلني أشهد هذا اليوم السعيد...

ـــ لن أوصيك؛ لا أريد حتى ماريا أنْ تعلم بإتفاق عملنا السريّ؛ يا سليمان تـارو؟

ـــ لا توصني... فالرجال كنوزمقفلة؛ لا يفتحها إلا اللسان؛ وأنا ليس لـديّ لسانًا.

****

وفي اليوم التالي اتصّل منـدوب صاحبة الجلالة بالحاكـم؛ ليعرف منه قضيّة الجنـود العشرة... فردّ عليه أنه يتفاوض مع زعيم القبيلة؛ وهوغاضب ومتشدد؛ لكن الأمـل قائم لحلّ هذه القضيّة بسلام... في أقرب الآجال.

ـــ ياحضرة الحاكم؛ إنّ الخبـــرقد وصل إلى لنـــدن؛ وصاحبة الجلالة تريد حـلًا بسرعة؛ أرجوك لا تحرجني أمام قصروستمنسترفي لندن؟

ـــ أبذل كلّ جهدي مستعينًا بالأصدقاء؛ لكن أحتاج لبعض الوقت ياسيدي المحترم. وخلال (48) ساعة سأحلّ المشكلة من دون أيّة فضائح؛ وسأعيد كلّ الجنـود بسـلام؛ وأتمنى يا صاحب السعادة الحضورإلينا في أقرب وقت؟

ـــ غـدًا سيكون عندك في القصرقائد الجيش؛ لكن لا تعلـن ولا تخبـرذلك لأحـد؛ حتى يصـل... وقريبًا بعده سأزوركم كذلك.

ـــ ونحن بالانتظار... لا تقلق ياسيدي مع تحياتي.

أدرك غريب أنه جعل من المندوب ومن قائد الجيش يتوسّـلان إليه؛ خشية الفضيحة؛ التي لا تريدها لندن لجنودها الذين يعبثون في المستعمرات؛ ويعتدون على السكان. إنما هوكان يخطط لشيء آخرأبعـد ... مستثمـرًا نتائج هذه القضيّة؛ لانتزاع المزيد من حقوق سكان المدينة من الإنكليز؛ كي يستطيع تحقيق المزيد من المنجزات لهم...

لقد أصبح يُجيد توزيع الأدواربمهنيّة حاكم قديرفي إدارة شؤون المدينة والجزيرة معًا. رغم وجود قوّة استعماريّة مهيمنة على البلاد والعباد قهرًا؛ لنهب خيراتهم الكثيرة... وهوالذي قد درس في بلاده الكثيرعن الاحتلال البريطانيّ للعراق والجزيرة العربيّة. ولأنه الطرف الأضعف في المعادلة؛ لن يوازن الطرف الأقوى؛ إلا بالدهاء وحُسن التدبيرالمبني على الثقة الراجحة... فهولا يريد المواجهة مع البريطانيين؛ وأنّى له ذلك؟ بل يريد توظيف عوامل ذاتيّة وموضوعيّة حوله لتحقيق منجزات له كحاكم... فأيّ حاكم من دون منجزات للنّاس؛ سيكون ظالمًا للتعويض عن الفشل فيه؛ فهو كحاكم الفاشوش في حكم قراقوش في مصرالأيوبيّة.
وشعرغريب أنّ تخطيطه يؤتي النتائج المرجوة تباعًا... فبعدما نال القصرالفكتوريّ من المندوب البريطانيّ؛ يريد (إبعاد) جنودهم العبثيين عن هذه الجزيرة ونقلهم إلى جزيرة فيجي؛ حيث يوجد المعسكرالبريطانيّ الكبيروقيادة الجيش؛ وسيتمّ استبدالهم بالشرطة المحليّة خاصّة بعد أزمة الجنود العشرة باغتصاب سيدة من قبيلة ماراهاري أكبرقبائل الجزيرة وأقواها... فهي تشكّل ثلث عدد السكان فيها؛ والبالغ عددهم ألفًا. أما القضيّة الأهمّ فهي الضرائب التي لا تستفيد منها المدينة لأنها تذهب إلى المندوب!

****

ووصل قائد الجيش البريطانيّ على متن طائرته الهليكوبترالعسكريّة... إلى مدينة تيكوبيا ضحى؛ ومعه ثلاثة ضباط من مساعديه. وتمّ استقباله من قبل الحاكم بحفاوة:
ـــ أهلًا وسهلًا بقائد جيش الإمبراطوريّة البريطانيّة العظمى في هذه الديار...
وانتفخت أوداج القائد... فمشى مشية التبختر؛ وهويضع (عصا) المارشاليّة والقيادة تحت أبطه الأيسر... وبسرعة مرتبكة دلفوا إلى قصرالحاكم؛ فسأل القائد:
ـــ أين وصلت جهودك لاطلاق سراح الجنود العشرة؛ يامسترالصوفيّ؟
ـــ لن تعود إلى جزيرة فيجي عصراليوم إلا والجنود العشرة معك ياقائد الجيش!
ـــ ولماذا يعودون معي؟
ـــ قبيلة الزعيم ماراهاري؛ وحضرتك تعلم أنها أكبرقبائل الجزيرة... قد اشترطوا نقل الجنود العشرة إلى خارج الجزيرة... وإلا ستكون العواقب وخيمة. وأنا أرى أنْ يتمّ ذلك بسلام... فصاحبة الجلالة تنتظرخبرإطلاق سراحهم بسرعة؛ كما قد علمت!
التفت القائد إلى مساعديه... والذين فهموا نظرته؛ فهزّوا رؤوسهم علامة الموافقة:
ـــ حسنًا يامسترالصوفيّ؛ موافق على هذا الحلّ؛ بشرط؛ اليوم يُطلق سراحهم؟
ـــ إذن: بعد الغداء سيصلون سالمين بصحبة عضولجنة الأعيان من تلك القبيلة.
ـــ ومنْ سيحلّ محلهم لفرض الأمن هنا؟

ـــ لدينا ستون شرطيًّا محليًّا ونحتاج أسلحة خفيفة لهم؛ ونرى أنْ تزودوهم ببنادق ليمارسوا دورهم في حماية المدينة؛ ولحماية مصالح بريطانيا العظمى هنا بالنتيجة...
ـــ سأعلم السيرمندوب صاحبة الجلالة بالأمر... وبعد الموافقة ستصلك البنادق.
ـــ وأرجومن سيادتك أنْ تجعلها مائة بندقية للاحتياط مع ذخيرة كافية للدفاع...
أقام الحاكم دعوة غداء للقائد ومساعديه؛ وحضرها أعضاء لجنة الأعيان ورهبان الكنائس الثلاثة... في أجواء من التفاؤل (المحسوب) من قبل غريب باشا الصوفيّ.
وما هي إلا ساعة ونصف بعد انتهاء دعوة الغداء؛ فأحضرعضو لجنة الأعيان من قبيلة الزعيم ماراهاري؛ الجنود العشرة؛ من دون بنادقهم العشر... ورؤوسهم نحو الأرض منكوسة؛ حالما رأوا قائد الجيش ومساعديه الثلاثة... أشارالقائد عليهم فورًا بالصعود في الطائرة... للعودة بهم إلى المعسكرالبريطانيّ الكبيرفي جزيرة فيجي غيرالبعيدة عن تيكوبيا كثيرًا.
لقد أنجزّالحاكم صفحة واحدة مما يخطط له؛ بدهاء وصمت ومرونة سياسيّة عالية... ورأى قائد الجيش البريطانيّ؛ كم كان رعديدًا أمام مشكلة الجنود العشرة؛ رغم أنه كان يتظاهربالعجرفة الإنكليزيّة المعروفة؛ وبالقوّة العسكريّة التي ما قتلت ذبابة...

****

أبلغ الحاكم رهبان الكنائس الثلاث وإمام المسجد؛ أنْ يحشدوا الشباب والرجال للقيام بحملة لتنظيف المدينة. ففي مدينة تيكوبيا يوجد شارعان رئيسيان؛ هما البحروالملكة؛ شارع البحرقريب إلى السوق الكبيرة؛ فيما شارع الملكة محلاته لمستلزمات النساء.
في اليوم المحدد؛ كان الحاكم ببدلة العمل؛ أوّل النازلين إلى الشارع حاملًا مكنسة... حينما رأى النّاس الحاكم؛ تسابقوا للقيام بعمليّة التنظيف... لقد قسّموا جموعهم على خطوط متتالية؛ كلّ جمع يقوم بتنظيف منطقة معينة من الشارع؛ ثمّ تتلوه مجموعة أخرى تتابع التنظيف... كموجات البحرعند المدّ ثمّ الجزر.
واستمرّت العمليّة من الصباح حتى العصر... فعادت للشارعين (النظافة) المطلوبة ورفعت الأنقاض والمخلّفات ووضعت صناديق رمي النفايات على طول الشارعين.
كما أصلحت أنظمة الاضاءة؛ ثمّ دهنت الأرصفة باللونين؛ الأبيض والأسود؛ مع تخطيط مناطق للعبور... ثمّ سقي الأشجارالجافة والمهملة؛ على جانبي الشارعين.
عاد الصوفيّ إلى قصرالحكم؛ ليجد التاجرسليمان تاروبانتظاره؛ وهوفي حالة قلق:
ـــ مالك ياأباماريا؟ أراك قلقًا ياصاحبي الأوّل؟
ـــ حضرة الحاكم المحترم... علمت من مصدرموثوق أنّ كارثة ستقع في المدينة؟
ـــ ما هي هذه الكارثة ياصاحبي؟

ـــ فتنة كبرى لضرب الاستقراروالأمن في تيكوبيا!؟
ـــ تكلّم بدقة مع التفاصيل التي حصلت عليها؟
ـــ عمليتان؛ الأولى لاغتيال زعيم القبيلة (ماراهاري) ؛ ثمّ إتهام خصمه الزعيم سانجيفان من القبيلة الأخرى! للإيقاع بين القبيلتين. والثانية لاغتيال راهب الكنيسة الإنجليكانيّة؛ وإتهام المسلمين بالمدينة بالفعلة المنكرة؟
ـــ هل أنت متأكّد مائة بالمائة من هاتين المعلومتين الخطيرتين؟
ـــ كما أنا متأكّد أنني أقف أمامك؛ ياحضرة الحاكم!
ـــ ومنْ تعتقد أنه وراء هاتين العمليتين؟
ـــ لا أعتقد بل متأكّد أنّ وراءها الإنكليز. الأولى للانتقام من (ماراهاري) الذي احتجزجنودهم العشرة عنوة... واعتبروا ذلك (إهانة) لجيش الإمبراطوريّة التي لا تغرب عنها الشّمس كما يقولون... فأرادوا إحداث فتنة بين القبائل لإبعاد التهمة عنهم. الثانية هي الأخطر؛ للإيقاع بين المسيحيين والمسلمين في فتنة لا تتوّقف في المدينة!
ـــ هل علمت بموعد عمليتي الاغتيال؟
ـــ الأولى بعد يومين أي يوم الجمعة؛ والثانية يوم الأحد؛ حين الحضورللقداس...

****

أصابت الحاكم حالة من التوّترالشديد؛ لما نقله إليه التاجرسليمان تارو. وبات طوال تلك الليلة لا يستطيع الركون إلى النوم... رغم التعب الذي ناله من عمليّة تنظيف الشارعين مع الجمهور... لقد أدرك أنّ ما سمعه من تارو؛ خطيروحقيقيّ... لذلك عليه أنْ يسعى سريعًا لتلافي وقوع فتنة؛ لن تنتهي لسنين طويلة؛ سواء بين القبيلتين أو بين أتباع الديانتين. وأكيد هوالذي سيدفع الثمن الكبيرفي حالة (الفشل) لوقفهما.
ـــ أوّل شيء سأفعله صباح الغد أنْ أبعث للزعيمين القبليين: ماراهاري وسانجيفان؛ لأضعهما في الموقف... ليتخذا الحراسة الضروريّة؛ وعدم الظهورلأيّ شخص غير معروف لهما؛ سواء من سكان المدينة أومن الغرباء.
فوق ذلك سأختارعدّة شرطة من شباب القبيلتين ليكونوا على أهبة الاستعداد للإمساك بالمجرمين... وسيكون عقابهم غيرمسبوق؛ لأقطع دابرالجريمة مستقبلًا.
أما بالنسبة لاستهداف الراهب الإنجيليكانيّ؛ فسأخبره أيضًا بالموقف دون تفاصيل؛ وأضع اثنين من الشرطة الشباب في قاعة الكنيسة ليكونا جاهزين لمنع وقوع جريمة الاغتيال. وسيكون عقابهما (درسًا) لمنْ تسوّل له نفسه الاعتداء على رجال الدّين.
وفي الصباح اجتمع مع أعضاء لجنة الأعيان؛ وأحاطهم علمًا بأنْ يكونوا على حذر ويقظة من مؤامرة تدّبرضد سكان المدينة... وأنه سيعلمهم بالوقت المناسب بالتدابير.

وهكذا تهيّأ غريب باشا الصوفيّ؛ لأكبرتحدّ يواجهه في صدرفترة حكمه في تيكوبيا. لم يكتفِ بذلك بل بعث إلى سليمان تارو... وأبلغه أنْ يبقى قريبًا منه حتى يتمّ القضاء على الخطرين بالتتابع؛ وعدم الانشغال عنه بأيّة أنشطة تجاريّة خلال الأيام القادمة.

ـــ اسمعني ياصديقي الوفّي... حينما اخترتك لمسؤوليّة نقل الأخباروالمعلومات؛ فكم أنا فخوربك لأنك حصلت على المعلومات بشأن محاولات الاغتيال الخبيثة ضد شخصيّات مهمة في مدينتنا الآمنة. الإنكليزمهما تظاهروا لك بالعرفان؛ مصالحهم أهمّ عندهم من أيّ إنسان. لهذا أرى أنْ نوسّع من دائرة الحصول على المعلومات من أجل حماية أنفسنا ومدينتنا... لذلك الآن أرى أنْ الحاجة تستوجب أنْ يكون معك عدد آخرمن الشباب والرجال وحتى النساء؛ لمعرفة ما يدوروراء الكواليس من الإنكليز وغيرالإنكليز... فكّرمعي باختيارعدد لا يزيد على أصابع اليدين ليعملوا سرًّا معك؟ وسنخصص لهم رواتب جيدة... ويجب أنْ يكونوا من الأشخاص الذين لا يثيرون أيّة ريبة أوشكوك... دون النظرإلى القبيلة والدّين؛ والصدق والدقة أهمّ شيء في العمل السريّ... لأنّ المعلومة يبنى عليها قرارمهم وكبيروخطيروسريع... والآن سأمنحك ألف جنيه إسترلينيّ؛ ثمنًا لحصانك الأصيل... فهوالحصان الذي قضى على الفتنة.

****

وتمّ إلقاء القبض على المجرمْين اللذين حاولا قتل الزعيم القبليّ ماراهاري؛ قبل أنْ يتمكنّا من الوصول إليه... وأبلغه الحاكم؛ أنْ يعاقبهما من دون الإعلان عن ذلك... فقررماراهاري أنْ يسلخ فروة رأسيهما؛ وهي العادة القديمة التي كانت سائدة في الجزيرة؛ وإحراقهما... وبذلك اختفى أثرهما؛ كي لا يعلم (الإنكليز) بمصيرهما. شعرالحاكم ارتياحًا للنتيجة... وتظاهربالنشاط الطبيعيّ؛ والتجوال في المدينة وفي إدارة شؤونها البلديّة والإداريّة اليوميّة... فلا يزال أمامه يوم الأحد؛ للخلاص من المؤامرة ضد راهب الكنيسة الإنجليكانيّة؛ هي أكبركنائس المدينة؛ وأكثرها أتباعًا. ورغم نشاطه؛ لكنه لم يستقرّطوال يومين؛ منتظرًا قداس يوم الأحد... وتسآل:

ـــ لماذا يفعل الإنكليزذلك؟ فما هذه العنجهيّة الاستعماريّة التي بها ينظرون إلى الآخرين؟ سبق وقد فعلوا مثلها في بلادي العراق وفي مصروفي غيرها من البلدان التي استعمروها... نهبوا الخيرات والموارد كما يفعلون هنا. لكنهم لا يسامحون أحدًا أساء إليهم... رغم أنهم هم المسيؤون؛ كما فعلها جنودهم العشرة؛ بإغتصاب سيدة أرملة؛ وهي ذاهبة إلى المدينة للتسوّق... إذا فُقد الأمن والأمان؛ فلا قيمة لحاكم أو لسلطان... الأمن الأساس لكلّ شيء من أجل تحقيق وإنجازالبناء والتطوّروالعمران. سأنتزع منهم تباعًا أهمّ وسائل وجودهم الثقيل في هذه الجزيرة؛ إنْ شاء الله.

ومن دون سابق موعد؛ أبلغه سكرتيره الخاصّ أنّ سليمان تارويريد مقابلته بسرعة!؟
ـــ سيدي الحاكم... تمّ العثورعلى إمام المسجد مقتولًا أمام منزله منذ قليل؟
ـــ هل عُرف القاتل؟
ـــ بعض المارة قالوا إنّ امرأة بيضاء غريبة عن الجزيرة هي التي طعنته بسكين؟
ـــ إذن في المدينة مجموعة من الرجال والنساء قد جاءوا خصيصًا لإحداث الفتنة!
ويبدوأنها فتنة كبيرة... فلا بدّ من إلقاء القبض على تلك المرأة بسرعة قصوى.
وتمّ الامساك بالمرأة... ثمّ نقلت بسريّة إلى مزرعة سليمان تارو؛ وهي مقيّدة. وقام الحاكم بنفسه التحقيق معها... فاعترفت بأنّها قد كُلّفت بالعمليّة؛ مقابل ألف جنيه...
ـــ ومن الذي كلفك ودفع لك المال؟
ـــ شخص من العاصمة هونيارا؟
ـــ ولماذا إمام المسجد هذا بالذات؟
ـــ لا أعرف؛ كلفني بالعمليّة ودفع لي نصف المبلغ؛ والنصف الثاني بعد التنفيذ.
ـــ وما اسم الذي كلفك بالعمليّة؟
ـــ يعقوب القاديانيّ!؟
ـــ لتبقى سجينة في المزرعة ياسيد تاروحتى إشعارآخر.
ـــ هل نعطيها طعامًا وماءً؟
ـــ لا تعطيها إلا الماء... فلابدّ من عقابها بالمثل مع المجرمين... لأنّ خبرها صار عند النّاس. وعدم عقابها سيخلق فوضى وضياع للعدالة... لكن بعد يوم الأحد!
ـــ فهمت ياسيدي الحاكم مقصدك؛ فحضرتك قنّاص لا يُخطأ الاصابة إلى الهدف.
ـــ يبدوياصاحبي أنّ الأعداء لديهم أكثرمن جهة تعمل سرًّا في الجزيرة. هذا ليس تضاربًا بعملهم؛ إنما هوتوزيع أدوار؛ وإلا ما معنى قتل الإمام؛ وهم يريدون إتهام المسلمين بقتل الراهب؛ لووقع القتل؟ أهوتوافق أم تناقض؟ ياسيد سليمان تارو: هل وجدت الرجال الذين سيعاونوك سرًّا؟ أريدهم رجالًا موثوقين وغيرتثارين.
ـــ واحدًا فقط حتى الآن... هوتاجرجوال بين الريف والمدينة. وعندي رجل ثقة.
ـــ طبيعة مهنته الجوالة مناسبة تمامًا للاختلاط لمعرفة وجمع الأخباروالمعلومات.
ـــ خلال أيام سأجد المزيد لعملنا الجديد؟
ولتغييرالأجواء وتخفيفها؛ سأل غريب:
ـــ وماهي أخبارماريا؟
ـــ تنتظرزيارتك الميمونة ياسيدي.
ـــ أنت ترى الوضع الذي نمرّبه الآن. إنْ شاء الله بعد الانتهاء من هذه المشاكل؛ سنفرح سويّة؛ ستذهب أيام المتاعب قريبًا. فمن الشدائد الثقيلة تولد الفرص الجديدة.

عاد الحاكم إلى قصره ليتصّل به مندوب صاحبة الجلالة؛ ويبلّغه أنّ الملكة قد منحته وسام الفارس لجهوده في إطلاق سراح الجنود العشرة بسلام... وحين حضوره إلى الجزيرة قريبًا لافتتاح المؤسسة الثقافيّة في القصر الفكتوريّ؛ سيقلّده ذلك الوسام.

ـــ شكرًا لصاحبة الجلالة على كرمها... وأرجو من سعادتك إعلامي عن الموافقة على تخصيص بنادق للشرطة المحليّة؟

ـــ لقد وافقت على تخصيص مائة بندقية مع الذخيرة الكافية لشرطة تيكوبيا ؛ كما أبلغني قائد الجيش... وسأعمل على نقلها معي في الطائرة؛ حين حضوري قريبًا... لم يكّ الحاكم سعيدًا ولا مسرورًا بمنحه وسام الفارس من الملكة... بل وجد أنّ ذلك التكريم يتناقض مع سلوك ممثلي الملكة في المستعمرات... ووصل إلى قناعة خاصّة أنّ ممثلي الملكة؛ بسبب البُعد الجغرافيّ لهم عن العاصمة لندن؛ كثيرًا ما يتصرفون اجتهادًا من عند أنفسهم؛ من دون علم قصروستمنسترفي لندن... وأنّ هناك العديد منهم يمارسون الفساد الماليّ والإداريّ؛ تحت غموض المستعمر الذي لا يخضع في المستعمرات للمسائلة والتدقيق. فهم بشريبحثون عن مصالحهم الشخصيّة؛ كغيرهم. وإلا ما تفسير التناقض في محاولة الإغتيال لخلق الفوضى والقلاقل في المستعمرات؟

****

ـــ يعقوب القاديانيّ! هذا من أتباع الميرزا القاديانيّ؛ ويبدوأنه يريد نشرطريقته الصوفيّة الخاصّة به في تيكوبيا على حساب غيرها من الطرق الدينيّة... لن أسمح بالصراع والتنافس المذهبيّ والدينيّ في مدينتنا... المواطنة الأساس عندي مع سكان المدينة... فالأحسن هوالأكثراحترامًا للقانون... عليه يجب اختيارإمام جديد للمسجد؟ أريد مشاورة سليمان تارو؛ فهوضليع بمعرفة النّاس هنا؛ وخاصّة من المسلمين.

ـــ ياحضرة الحاكم هناك اثنان يصلحان للإمامة... أحدهما السّيد سعيد الأزهريّ؛ وسمّي بالأزهريّ لأنه درس في جامعة الأزهربمصر. الثاني السّيد صلاح الماليزيّ؛ وسمّي بالماليزيّ؛ لأنه خريج الجامعة الإسلاميّة بماليزيا.

ـــ وأنت أيّهما تراه الأنسب للإمامة؟

ـــ القرارلحضرتك... كلاهما محبوبان من النّاس ويستحقان الإمامة؛ ولهما القدرة على الافتاء والوعظ والخطابة في يوم الجمعة.

ـــ أرى أنْ نختارهما سويّة... الشيخ سعيد الأزهريّ يكون الإمام؛ والشيخ صلاح يكون نائب الإمام. وبذلك نضمن عدم حصول فراغ في الإمامة لأيّ سبب مفاجيء!

ـــ هذا قرارحصيف ياسيدي... وكذلك كي نقطع طريق (التنافس) بين الشيخين.

ـــ سألتقي بهما قريبًا... سيكون أوّل نشاط مبارك للشيخ سعيد الأزهريّ؛ أنْ يعقد قِران زواجي من الآنسة ماريا... فهوسعيد ومُزهرإنْ شاء الله.
بفرح غامرقال الأب:
ـــ فأل حسن لنا؛ اسمه سعيد ولقبه الأزهريّ.
ـــ الآن أريدهما هنا في القصر؛ لحسم الموضوع قبل حصول القيل والقال.
وأرسل غريب سكرتيره إلى منزلي الشيخين؛ وأبلغهما الحضورإلى قصرالحاكم!؟
ـــ اسمعاني أيّها الشيخان الكريمان... تم اختيارالشيخ سعيد إمامًا للمسجد؛ والشيخ صلاح نائب للإمام؛ فتعاونا على البرّوالتقوى. عمليّة قتل واغتيال الإمام السابق هي مدبرة... من قبل أتباع القاديانيّة؛ يريدون الولوج إلى تيكوبيا لنشرأفكارهم الهدامة. سنعاقب القاتلة؛ فانتبها... وانشرا الوعي والمحبّة والسّلام بين مسلمين وغيرهم من السكان. أما ما يأتيكما من أموال الوقف فسيبقى حصة للمسجد؛ كما كان الأمر... أما أنت ياشيخ سعيد الأزهريّ؛ فستكون فاتحة بركة لي؛ الأسبوع القادم أريدك لعقد قِراني على الآنسة ماريا بنت السّيد سليمان تارو... وليكن معك الشيخ صلاح كذلك.
ـــ مبارك عليك ياسيدي... لابد من زواجك كي تتخذ القرارات المريحة لنا دائمًا!
ابتسامة ترتسم على الوجوه؛ رغم توّترالأجواء المحيطة بهم في الجزيرة والمدينة...

****

وسط هيولي الصراع؛ رنّ جرس الهاتف الأرضيّ في مكتب الحاكم السّيد غريب:
ـــ آلو... مرحبًا أنا الحاجّ الماليزيّ نجيب الله خان من كولالمبورياأخ غريب!؟
كانت مفاجأة أنْ يسمع غريب صوت صديقه الماليزيّ الكريم بعد سنين من الفراق:
ـــ أهلًا وسهلًا؛ ياأخي والله مشتاق لحضرتك؛ عسى أنْ تكون بخير؟
ـــ الحمد لله بخير؛ ومعي صديق سفرتك الإماراتيّ السّيد عبد الله المزروعيّ...
فرح غريب بهذا الخبر...وتحدّث إلى المزروعيّ بمودّة وشوق وترحيب:
ـــ لقد عرفت أنك الآن الحاكم على جزيرة تيكوتيا؛ وهذه فرصة لنا أنْ نزورك؟
ـــ ستكون أجمل زيارة ياأخي عبد الله؛ كم مشتاق أنْ أسمع من أحد اللغة العربيّة.
ـــ ليس ذلك فقط بل قررت شراء شحنة أخشاب من تيكوتيا؟
ـــ سأكون بانتظارك في أقرب وقت؛ ياضيفي وصديقي العزيز.
ـــ غدًا إذْ توفرت سفينة صغيرة؛ سأكون فيها إنْ شاء الله.
أحسّ غريب بشوق لصديقه الإماراتيّ الذي قضى معه عدّة أيام وليالٍ في سفرتهما البحريّة... وسفرالطريق يكشف معادن الرجال الطيّب... كمعدن المزروعيّ الأصيل.
رغم المسؤوليّة ومستجدات وتطوّرات شؤون المدينة والجزيرة؛ كانت مسرّة غريب

بقرب اللقاء بصديقه عبد الله؛ قد منحه إحساس الانتماء إلى الشرق الذي غـادره من سنين. ووجد في هذه المفاجـأة انتعاشة روح؛ مثلما ستكون مكسبًا لسكان القبائل في الجزيرة لبيع أخشاب غاباتهم؛ لتحسين مستواهم الماديّ المحدود.
وبعد ثلاثة أيام وصل المزروعيّ؛ واستقبله الصوفيّ بترحاب عميق وضيافة كريمة.
ـــ أخبرني عن أحوال البلاد والعباد ياأخي عبد الله؛ بعد هذه السنين الطوال؟
ـــ تذكّرت نبوءتك يوم كنّا في السّفينة عن الشيخ زايد! يومها قلت لي:
(هذا الشيخ الحاكم سيحقق الكثيرلمستقبل البلاد والعباد...). وبالفعل حقق لنا الكثير.
ـــ ياعبد الله؛ إنّ أهمّ ما يحققه الحاكم الرشيـد ؛ منظومة القيـم الأخلاقيّة كي تبقى من بعده كقانون حاكم للحياة نحوالخير... قانون يحبّه النّاس كجزء من حياتهم العامّة.
وسرد المزروعيّ منجزات الشيخ زايد... والحسّ الإنسانيّ العالي في التعامل اليوميّ مع الشعب؛ صغيرهم وكبيرهم... وهنا أخرج غريب الصوفيّ دفترملاحظاته:
ـــ قل لي المزيد ياعبد الله عن هذا الشيخ المبارك؛ أريد أنْ أقتبس من سياسته هنا؛ بما يعززقدرتي على إدارة الجزيرة وناسها الطيبيين؛ فالبركة جاءت معك إلى هنا...
وطفق المزروعيّ بذكرأساسيّات الشيخ زايـد في بناء تجربة إماراتيّة منيـرة؛ وسط عالم من الفوضى... وكيف جعل من بلد شبه صحراويّ؛ منارة قدوة للبلدان الجديدة.

****

جلس اثنان من رجال الحاكم قريبًا من راهب الكنيسة الإنجليكانيّة؛ وهويؤدي تراتيل قداس يوم الأحد. كانت القاعة تعجّ بالحضورمن المسيحيين. وبعد بدء القداس بعشر دقائق؛ فجـأة نهض شخصان وأشهرا خنجرين معكوفين؛ وقصدا الراهب؛ فسارع رجال الحاكم الانقضاض عليهما بشجاعة؛ فيما ساد الهرج والمرج القاعـة؛ فصاح الراهب بالجموع السكينة والهدوء... وحاول بعض الحضورالهجوم على الشخصين المعتديين؛ لكن طلب الراهب منهم الامتناع؛ وليدعُ رجال الحاكم يتصرفون معهما.
تمّ تقييد الشخصين وتغطية وجهيهما؛ ثمّ نقلا إلى مكان بعيد عن الجمهور.
كان الحاكم قد أعدّ لهما عقابًا لم يُسبق إليه... لقد جهّزلهما قاربـًا خشبيًا مثقوبًا؛ وتمّ ربط معصميهما بوثاق شديد؛ ووضعا في القارب المثقوب؛ ثمّ وضعت معهما المرأة التي قتلت الإمام. أُطلق القارب في مياه المحيط الهاديء... حتى اختفى عن الأنظار.
بذلك قضى الحاكم على مصادرالتهديد التي كادت أنْ تخلق فتنة لا تنطفأ بين السكان.
لم يطل ردّ فعل الراهب الإنجليكانيّ للحاكم؛ الذي حفظ حياته من الغدروالقتل؛ فقرر أنْ ينتـدب ابنته الطبيبة؛ والتي تخرجت من لنـدن؛ لتكون أوّل طبيبة في المستشفى الجديد الذي أوشك على الاكتمال... مما أدخل الرضا التام في خاطرالحاكم...

في اليوم التالي وصل منـدوب صاحبة الجلالة إلى تيكوبيا لافتتاح المؤسسة الثقافيّة... تمّ استقباله بحفاوة؛ وانتقل إلى المبنى الفكتوريّ؛ وتفاجأ بالجهود المثمـرة التي قلبت ديكـورالمبنى إلى: الأفضل والأجمل والأحسن... وبعـد جولــة على الأقسام الثلاثة: القسم الفنيّ؛ والقسم التعليميّ ؛ والقسم المسرحيّ. كتب في سجـل الزيارات كلمات تدلّ على الإعجاب: (اليوم أفتتح المؤسسة الثقافيّة في تيكوبيا؛ لقد وجدت عالمًا من الجمال غيرالمتوّقع لي... يرقى إلى النشاطات في أوربا. شكرًا لمنْ جعل من القصر الفكتوريّ يُعيد مجده؛ كأنّه خُلـق من جديد؛ بعد أكثرمن مائة سنة من البناء القديم). ثمّ انتقل الحاكم والمندوب وأعضاء لجنة أعيان المدينة ورجال الدّين إلى قصرالحاكم؛ حيث أقام للمندوب دعوة غداء كريمة... بعد الانتهاء من الدعوة قلّـد المندوب الحاكم وسام الفارس؛ باسم صاحبة الجلالة الملكة؛ وسط تصفيق الحضور. ثمّ قال كلمة:

ـــ سعادة السيـرجورج تروس؛ السادة الحضور... أشكركم على الاهتمام الرائع؛ في الوقت الذي أقدّم لصاحبة الجلالة كلّ الشكرلهذا الوسام المهم؛ أشكرالمندوب على حضوره الكريم. وبهذه المناسبة أرجوأنْ يتكرّم لصالح السكان؛ بأنْ تكون الضرائب من حصة المدينة وتبقى فيها لاستكمال المشاريع العديدة للماء والكهرباء والخدمات...

كان السيرتروس يهزّرأسه علامة الموافقة؛ رغم المفاجـأة التي فرضها عليه الحاكم!

****

شعرغريب أنه حقق نتائجًا مرضيّة في مساره كحاكم في هذه المدينة / الجزيرة... ثمّ عاد به (شريط الذكريات) إلى أيام الشباب الأوّل في العراق حينما كانت تحـلّ عليه العطلة الصيفيّة؛ وهولايزال طالبًا في الجامعة... فيعود إلى أهله في سامراء؛ لقضاء أيام تلك العطلة؛ مع رفاق الصبا والتلمذة والفتوة في المدرسة: الابتدائيّة والثانويّة... وكيف أنّ هوايته كانت الصيد البريّ والنهريّ. فكان يخرج مع بعض رفاقه إلى بريّة واسعة يقال لها (العيــث) شبه صحراويّة؛ وتقـع إلى شرق مدينة سامراء بعشرات الكليومترات؛ حيث تكثرفيها طرائد من الطيور؛ خاصّة القطا والحباري والأرانـب؛ فلا يعود إلا ومعه صيدًا يكفي عائلته عشــاءً. فينتابه إحساس نصروتحقيق منجـز... وإذا كان الصيد وفيرًا؛ يبادربكـرم؛ توزيع بعضه على الجيـران وبعض الأصدقاء. لهذا اشتهرأنه صياد ماهر؛ قلما تخطأه طريـدة من طيرأومن حيوان بـريّ؛ لهذا قد أطلق عليه معارفه لقـب (السكمانيّ). أي الذي لا يُخطأ الهدف من الضربة الأولى. بل أصبح لقب (السكمانيّ) قرينـــه؛ لمنْ يسأل عنه أو يناديه؛ وكان هويرتــاح لهذا اللقب أيّما راحة نفسيّة؛ لأنه يدلّ على التمكّن من فعل المنجز؛ ولـوكان في الصيد...

وبروح (السكمانيّ) لا يزال يصطاد فرصًا جديدة في الغربة؛ لكنها ليست طرائـدًا ولا طيورًا بل هي تحقيق ما لم يحققه الذين حكمـوا هذه المدينة من قبل؛ من منجزات.
وإذا كان غريب يميل إلى الصيد البريّ؛ في البراري المفتوحة... فإنّ الصيد في نهر دجلة كان يُغريه كذلك. فسمك نهردجلـة العذب؛ ليس له مثيل؛ وأفضل اصطياد لـه عند بوابات سدّة الثرثارالتي أقامتها شركة زبلن الألمانيّة في عهد الملك فيصل الثاني. حيث تكثرالأسماك في تلك البقعة المائيّة... فما أنْ ترمي (السنارة) وتسحب خيطها النايلون بقـوّة حتى تغرزفي واحدة؛ لا يقلّ وزنها عن كيلوين. ويذكرأنّ أوّل سمكة اصطادها كانت بهذا الوزن؛ وكان عمره لا يتجاوزالثالثـة عشرة سنة. وبعدما عـاد إلى المنزل؛ وجد ضيوفًا مع أبيه على الغداء؛ فسُـرّالأب بذلك؛ فأشارعليه بأنْ تقوم أمّه بطبخ تلك السمكة للضيوف... ثمّ تمّ تناول (السمكة) المشوية التي لم يذق لحمها.
شعرأنّ صيده الثمين قد ذهب لغيره فجأة؛ وهوالسكمانيّ الصيّاد بلهجة أهالي سامراء:
ـــ لن أدع صيدي مرّة أخرى يذهب لغيري؛ بل سأعمل على فعل شيء لاضمنه.
وضحك في خاطره؛ وهو يتذكّرذلك الموقف المتشابك الخواطـر؛ بين فتى صيّاد لكنه لم يذق من صيده الأوّل شيئًا... وترّحم على والديه الغائبين عن الحيـاة تحت التراب:
ـــ الآن كلّ (صيدي) تحت يديّ؛ انتزعته من الإنكليز؛ بمزيج من الدهاء وحججّ صادقة للمنفعة العامّة... فهوصيد لكنه من نوع آخر؛ ساسمّيه صيـد (السكمانيّ)؟

****

تزيين قصرسليمان تاروبمناسبة عقـد قِـرآن غريب باشا الصوفيّ على ابنته ماريا... كان الحضورعائليًا؛ إضافة للشيخ سعيد الأزهريّ والشيخ صلاح الماليزيّ وأعضاء لجنة الأعيان الستة ورجال الكنيسة الثلاثة وزعماء القبائل الستة؛ وبعض المعـارف.
وأراد السّيد الصوفيّ من هذه المناسبة (جمع) المتناقضات؛ لتوحيد المسار؛ من بعد القضاء على المتآمرين الغرباء... الذين أرادوا نشرالفتنة بين سكان المدينة المتآلفيـن.
فهي احتفاليّة خاصّة؛ لكنها ذات مقاصد تفاعليّة عامّة؛ للسلم الأهليّ.
فقه سليمان تارومراد الحاكم من هذه المناسبة؛ فكان له حضورًا إيجابيًا مع الجميع...
وبالمقابل أراد الصوفيّ أنْ تكون لسليمان تارومكانة جديدة بين زعماء المدينة القبليين والدينيين والسيّاسيين... لأنّ تارواليس فقط والد زوجته؛ بل مسؤول مخابرات قصـر الحاكم؛ والمطّلع على أسرارالمدينة وسكانها؛ بموجب التكليف الذي ناله من الحاكم.
ووسط هيولي الأفراح؛ لم ينشغل الصوفيّ عن متابعة الأنشطة العديدة التي أمربها...
وقبل نهايّة حفلة عقد القرآن؛ وصل سكرتيره الخاصّ؛ وهمس في أذنه خبرًا سعيدًا:
ـــ سيدي الحاكم؛ أبلغني رئيس عمال التنقيب عن الذّهب في جبل فريـدة؛ أنهم قد

وجدوا منجمًا هوالأكبرفي الجزيرة؛ وعروق الذّهب قريبة جدًّا؛ واستخراجها سهل لا يستغرق ولا يكلّف كثيرًا... فطلب مني أنْ أبشّـرك بهذا الاكتشاف الجديد والكبير.
ـــ الحمد لله الذي جمع لي الأصفروالأحمرليكونا عونًا وممددًا لاستكمال المنجزات التي أريد تحقيقها لسكان هذه المدينة شبـه المنسية في: التاريخ والجغرافيا والسيّاسة.
ووقف الحاكم وسط الحضورمتقائلًا؛ وهوينظرمبتسمًا إلى صديقه المزروعيّ:
ـــ أيّها السادة الحضور؛ لدينا مثل يقول: المرأة أما خيرورزق؛ وأما شرّوحمق... أعلن لكم أنّ وجه الآنسة ماريا تارو؛ كان خيرًا ورزقًا عظيمًا لسكان المدينة؛ إذْ تمّ اليوم اكتشاف أكبرمنجم للذّهب في هذه الجزيرة... وسنعمل على أنْ يكون مع أموال الضرائب التي صارت إلينا؛ لتطوّيركلّ خدمات المدينة وريفها الزراعيّ... وأولّ قراراتخذته الآن؛ أنْ تخفّض الضرائب بنسبة خمسين بالمائة على كافة السكان من بدايّة الشهرالجديد؛ فمنجم الذهب هذا سيغنينا عن الضرائب العالية التي كانت ثقيلة.
تصفيق حارواستبشاربعهد جديد لهذا الحاكم غريب باشا الصوفيّ... وسالت الدموع من مآقي الحاكم... فردد في خاطره الذي قلما يهدأ؛ كلما تذكّـربلاده العربيّة البعيدة:
ـــ رغم الثروات الكبيرة في بلادنا من نفط وذهب وحديد وفضّة ونحاس وغازووو لكن الضرائب المفروضة على السكان؛ تثقل كاهل المواطن؛ ولـوكان عاطـلًا عن العمل... ضرائب مباشرة وغيرمباشرة؛ لا تختلف عن ضرائب المحتل والمستعمر!

****

لم يتوانَ الحاكم عن القيام بإكمال الضروريات من الخدمات للسكان؛ فباشرالتوجيه نحوإصلاح وتبليط الشوارع الرئيسة في المدينة؛ التي قد أصابها التآكـل والتكسّر... مع تجديد مضخات الماء العذب إلى المدينة في موقع توزيـع المياه فيها... مع حملة لإصلاح الكهرباء وتوسيع الشبكة لتشمل الريف؛ لأوّل مرّة في تلك الجزيرة القصيّة.
كانت جهود الحاكم غريب الصوفيّ تلقى تأييدًا كبيرًا من السكان... كلّ ذلك قد تزامن مع المباشرة بفتح الدراسة في القسم التعليميّ في المؤسسة الثقافيّة؛ للبنيـن والبنات...
ثمّ التفت (الباشا) نحوإصلاح ذات البين بين بعض القبائـل المتنازعة على الأراضي الزراعيّة؛ مما أكسبه مكانة المصلح والمحافظ على السلم الأهليّ بجدارة.
لقد أدرك الصوفيّ بعـد التجربة؛ أنّ البلاد؛ شأنها من شأن عقول أهلها وأحلامهم... فكلما اقترب الحاكم من حبّ النّاس وجدوا فيه أنـه: هم؛ حتى يتجسّدوا هم فيه أب وأمّ.
وتذكّـرمقولة الحلاج في مخاطبة أيقونته: (لقد أدنيتني منـك حتى ظنّـنت أنّـك أنّـي)!
هكذا ساد الأمن والسّلام في ربوع تيكوبيا بين الجميع... وكان مبدأ المواطنة واحترام القانون؛ الأساس والمعيارالذي نظّم العلاقة بين الحاكم والمحكوم... وبالمقابـل سعى

الحاكم الصوفيّ إلى عدم الصدام مع مصالح الإمبراطوريّة البريطانيّة؛ حتى خرجت من عموم جزرسليمان في عامّ 1978؛ وإعـلان استقـلال البـلاد؛ رسميًا وواقعيًا... لقد أجمع السكان بمختلف قبائلهم ودياناتهم؛ عدم إجراء أيّة مسابقـة للرقص الطقوسيّ لتغييرالحاكم؛ وأجمعوا على بقاء غريب باشا الصوفي الحاكم عليهم مـدى الحياة... وكتبوا بذلك (محضرًا) وقعّه أعضاء لجنة الأعيان ورجال الدّين والقبائل وغيرهم؛ وأرسلوه إلى العاصمة هونيـارا؛ والتي قد وافقت على طلبهم الجماعيّ؛ على شـرط استمرارمواصلة التنسيق الدائم مع حكومة العاصمة في الشـؤون الداخليّة والخارجيّة. وظلّ غريب باشا الصوفيّ حاكمًا عادلًا لخمسٍ وأربعين سنة... حينما أدرك دنـوأجله أوصى عائلته أنْ يُدفن في جبل فريدة للذّهب؛ كأنّه عائد إلى رحم أمّه فريدة التي كان ذهبها مركبه في سفره السندباديّ. ولتأكيد رؤيته كُتب على قبره قول الشّاعرالعربيّ:

{ لا تبـكِ إلـفًـا؛ لا ولا دارًا ..... ولا رســـمًا دثـــــرْ }.
{ فالـنّـــاس إلفُـــك كلّهُـــم ..... والأرض أجمعها بشــرْ }.

****

{ انتهـت الـرّوايـة }